المعهد الوطني للتعليم العالي
للغة و الأدب العربي
تلمسان

جامعة بوبكر بلقايد * تلمسان *
كلية الآداب و اللغات
مكتبة اللغة و الأدب العربي

أسلوب السرد القصصي

في

القـــرآن

0106
2011

إعداد الطالب

محمد طول

إشراف

الدكتور كمال اسماعيل

« أطروحة جامعية لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي »

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

* محتويات البحث *

الموضوع	الصفحة
إهداء	ب
شكر وتقدير	ج
محتويات البحث	د
مقدمة	١
الباب الأول : مقومات القصة ، وأسلوب السرد القصصي في القرآن	١٤
الفصل الأول : طبيعة الحدث ، وعنصرا الزمان والمكان في السرد القصصي في القرآن	١٥
(١) - طبيعة الحدث	١٦
(٢) - زمان الحدث	٣٥
(٣) - مكان الحدث	٤٣
تقويم الفصل الأول	٥٠
الفصل الثاني : الشخصية وأسلوب السرد القصصي في القرآن	٥٢
تمهيد	٥٣
(١) - البعد الجسدي للشخصية	٥٦
(٢) - البعد الاجتماعي	٦٦
(٣) - البعد النفسي	٧١

شخصيات معاونة ٧٩
تقويم الفصل الثاني ٨٣

الفصل الثالث : الصراع وأسلوب السرد القصصي
في القرآن ٨٤
تمهيد ٨٥
(١) ـ الصراع في قصة نوح ٨٧
(٢) ـ الصراع في قصة يوسف ٨٨
(٣) ـ الصراع في قصة موسى ٩٥
تقويم الفصل الثالث ١٠٧
تقويم الباب الأول ١٠٨

الباب الثاني : اللغة وأسلوب السرد القصصي
في القرآن ١١١

تمهيد في الرؤية العامة للأسلوب ١١٢
الفصل الأول : الايجاز والبسط ، في أسلوب السرد
القصصي في القرآن ١١٨
(١) ـ تمهيد ١١٩
(١) ـ الايجاز ١٢١
(٢) ـ البسط ١٣٢
تقويم الفصل الأول ١٣٩

الفصل الثاني : التناسب بين الجمل ، وأسلوب السرد
القصصي في القرآن ١٤١
تمهيد ١٤٢
(١) ـ الربط العقلي ١٤٥
(٢) ـ الربط اللفظي ١٤٨
تقويم الفصل الثاني ١٥٦
الفصل الثالث : ظاهرة التأكيد ، وأسلوب السرد القصصي
في القرآن ١٥٨
التأكيد بـ" إن " ١٦٢
التأكيد باللام والنون ١٧٠
تقويم الفصل الثالث ١٧٥
الفصل الرابع : التوافق الصوتي ، وأسلوب السرد القصصي
في القرآن ١٧٦
تمهيد ١٧٧
(١) ـ توافق الأصوات داخل الجملة والكلمة ١٨٠
(٢) ـ موافقة التركيب الصوتي للأحداث ١٨٦
(٣) ـ موافقة التركيب الصوتي للشخصية ١٩٢
تقويم الفصل الرابع ١٩٩
تقويم الباب الثاني ٢٠١
الخاتمة ٢٠٤
المصادر والمراجع ٢٠٩
(١) ـ الكتب ٢٠٩
(٢) ـ الدوريات ٢٢٤
(٣) ـ المراجع باللغة الأجنبية ٢٢٥

* ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

مقدمة .

إن اسلوب السرد(١) القصصي من الأهمية بمكان ، فهو يجتذب إليه الدارس، ويعصم به الباحث ؛ إذ تعود مكانته إلى ما للقص القرآني من قيمة ، من حيث انه احدى الوسيلتين اللتين أتّبعهما الخالق سبحانه وتعالى،لتبليغ أوامره للبشر، عن طريق الوحي بقرآن تَنَزَّلَ على قلب رسوله الكريم، حيث ان الوسيلة الأخرى هي الخطاب المباشر الذي قد لايعتمد على عنصر السرد ، الذي هو بمفهومه الاصطلاحي تتالي الأحداث، كما أنه أيضا لايعرض للزمن الماضي ولسير الأولين .

وتعود مكانة القص القرآني كذلك ، في إطار التبليغ بعرض أحداث الماضي المتتالية ،إلى أنه في ذاته سجل

---

(١)ـ السرد في اللغة : تقدمة شيء إلى شيء تأتي به منسقاً بعضه في إثر بعض . وسرد الحديث : إذا تابعه ، وكان جيد السياق له . انظر : ابن منظور : لسان العرب ج ١٣ ـ دار صادر ، دار بيروت ص٢١١ والسرد بمصطلحه الفني هو الخطوات التي يقوم بها الحاكي ، وينتج عنها النص القصصي . انظر : سمير المرزوقي ، و جميل شاكر : مدخل إلى نظرية القصة ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر ـ ص ص ٧٧، ٧٨

يحفل بصفحات من حياة الأولين ومعايشهم ، وما يجلون وما يحتقرون ، ما يظنون فيه القداسة وما يحبونه مجلبة للمعرة .

وهذا السجل يلتصق بالأماكن التي كانت مسرحاً لحيواتهم واستقبالهم لأوامر الغيب بالتصديق أو الصدود ، ما أغفله القرآن الكريم من هذه الأماكن لحكمة عليا ، وأوحى به في الوقت نفسه عرضاً ، وما ذكره كذلك كان لتبيينة ولجلاء المواقف ، ولتجليات الحكمة الإلهية ذاتها ، كما أن القصص القرآني كذلك ثبت للأزمنة ومرجع للتاريخ ، منذ أن استدار الزمان ، من يوم خلق الله الكون إلى عهد أبينا آدم عليه السلام ، إلى بعثة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، واختتامه تلقي نعمة الله المتمثلة في الوحي الكريم .

ولقد وقع اختياري لدرس موضوع أسلوب السرد القصصي في القرآن لرؤية ألحت على ذهني ، من أن هذا الأسلوب لابد أن يكون واضحا للمسلم ، لاستكشاف عظمة الخالق ومعرفة أسراره ، وكذلك رغبة مني في استكمال ما بدأ به أجدادنا العرب من الباحثين العظام ، في التقرب

الى الله بمحاولة معرفة دلائل الاعجاز، وأسرار البلاغة القرآنية ، ولأني أردت أن أبرهن كذلك ، في ظل بعض أساليب القول البشري ، ومنها فن القصص العام الذي لم يكن مقصورا على الأدباء والعباقرة ، بل ألهمته من قبل الجدات والأمهات والأناس العاديون ، عندما يضيق بهم تواتر الحديث السجال المتراتب ، فيلجأون بالسليقة الى تحوير ما يريدون أن يقولوا في صورة من الحكاية وإنابة الشخوص ، أردت أن أبرهن على أن أسلوب السرد القصصي في القرآن، في جانب كبير منه ، يتمثل في ترتيب حدثي توافر له زمانه ومكانه ، وأوحي بهما .

واضطلع بهذا الحدث المعين شخوص لهم سماتهم المذكورة من الحدث وبعده ، أو في أضعاف مما سبقه من أحداث، وأن نزاعاً أو صراعاً معيناً له طبيعة خاصة، هو الذي يحكم هذا الأسلوب من السرد القصصي ، ويحدده ، ويرسم كينونته ، ثم تأتي اللغة بوصفها أسلوبا كذلك ، لتكون تتويجا للأسلوب الحدثي وتتمة له .

والحقيقة،أنه قابلتني مشكلات كثيرة في محاولة تتبع هذا الأسلوب والإلمام بطرف يسير من الإعجاز القرآني ،

من ذلك ، مشكلة ترتيب سور القرآن ، وهذه تهمني من حيث ضرورة تقصي الشخصيات وأبعادها ، ولضبط الموضع الذي ذكرت فيه أول مرة ، وكذلك توافر القصص وغناها بالحادثة الواحدة .

إن هذه المألة قد استطعت أن أجني منها ثمرات عدة، ذلك أن السرد الإلهي ، على الرغم من تكرير الحادثة في مواطن مختلفة،وفي سور قصار وطوال ، لايشوبه الاختلاف أو التناقض ، فهو يقلب الحدث على أوجه له عدة ،ثم إنه يصوغه على أحرف من اللغة متنوعة ، عرضا للاعجاز، وإظهاراً لتجلياته .

وكان لي أن أقابل قلة المراجع الكبار التي تتصل ببحثي، بسفر إلى المشرق ، قاصد ، رأيت فيه ماشفى نفسي من النصوص ونسختها ، كما مثت قدماي في مواطن دارت أحداث بعض القصص القرآني على كثب منها ، بل إن رغبة الوصول إلى الصدق الفني حَدَتْني أن أزور المتحف المصري، وأقف ساعات

طوالامستغرقا في بواطن تماثيل الجحارة التي صنعها الفراعين لأنفسهم رغبة في الخلود .

إن البحث العلمي إضافة،وتشوف للجديد ، وابتكار ، ولذلك لم أعمد الى أن أكرر ماسبق أن انتهى اليه باحثون قبلي. ولقد أثلج صدري وأغراني بالاضطلاع بالبحث ، أن جل البحوث التي خاضت في القص القرآني لم تفطن لرؤية أسلوب السرد القصصي من الوجهة التي أَسْتَقْبَلْتُهَا .

وأهم هذه البحوث ، البحث الأكاديمي للدكتور : محمد أحمد خلف الله[1] ، وذلك قد فرع القصص القرآني لأجناس وأنماط ، وصب جهده الذي يشكر عليه في هذه الغاية .

ومن البحوث كذلك ، ماإهتم بالدرس النفسي بمفرده في القص القرآني ، مثل ذلك ، البحث القيم الذي كتبه الدكتور : التهامي نقرة[2] ، وتوخى فيه الجانب النفسي لمعرفة عوامل التأثير في أسلوب القصص القرآني .

---

(١) ـ د. محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم مطبعة الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٥

(٢) ـ د. التهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن ـ الشركة التونسية للتوزيع ـ تونس ـ ١٩٧٤

وَبَحْثُ الأستاذ : ثروت أباظة[١] عن السرد القصصي في القرآن بحث جيد ، تنبه فيه لمسائل قصصية فنية حديثة ومهمة ، ترتبط به بصفته قاصّاً لامعاً ، يتوخى الناحية الاسلامية في قصصه ويتلهمها ، ويستفيد منها في بيانه القصصي ، بل في وضع عناوين معظم رواياته .

وبَحَثَ في الموضوع ، السيد عبد الحافظ عبد ربه[٢] ، وأولى اهتمامه فيه لقضية الاعجاز في قصص القرآن والعبرة من ذكرها ، كما أفرد جزءا كبيرا من البحث لمناقشة المتحللين عن الهداية والتوفيق ، كما يرى ، ودفع زيغهم وزيفهم ومقاومة تضليلهم وزخرفهم .

ومن الكتب الحديثة التي دارت حول قصة واحدة بمفسريها ، كتاب الدكتور : خالد أحمد أبو جندي[٣] ، ولقد حاول فيه أن يبرهن على وجود القصة الفنية في تراثنا العربي الاسلامي واتخذ قصة يوسف مثالاً عملياً تجريبياً للبرهنة على افتراضه .

---

(١) ـ ثروت أباظة : السرد القصصي في القرآن الكريم ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ القاهرة .

(٢) ـ السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث في قصص القرآن ـ دار الكتاب اللبناني بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٢

(٣) ـ د. خالد أحمد أبو جندي : الجانب الفني في القصة القرآنية

ان من المسائل التي توقفت عندها كذلك ، ووجدت لها حلا وفاقا ، مسألة المنهج الذي سأدرس على ضوئه أسلوب السرد القصصي في القرآن . ولما كانت مناهج البحث شائعة ومتاحة للباحث ، فإنني استعرضتها ووقفت عندها لأختير المنهج الذي يفرضه درس الأدب القرآني .

ان هذه المناهج ثلاثة ، الاستدلال ، والاستقراء ، والاسترداد ،

١ ـ الاستدلال بإيجاز ، هو البرهان الذي يبدأ من قضايا نسلم بها ، وننتقل منها الى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة ، دون اللجوء الى تجربة كما هو الحال في معظم مسائل الرياضيات ، وفيه ينتقل الباحث من العام الى الخاص .(١)

٢ ـ المنهج الاستقرائي ، وهو باختصار ، منهج تجريبي يتم الانتقال فيه من الخاص الى العام ، على عكس المنهج الاستدلالي ، وخطواته تبدأ بالوصف أو التعريف ، ثم التفسير الذي ينصب على ظاهرة ما ، ثم وضع فرض يمكن أن يكون قضية تفسيرية للظاهرة ، وتأتي بعد ذلك خطوة امتحان صحة هذا الفرض ،

---

(١) ـ د. عبد الرحمن بدوي : مناهج البحث العلمي ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ ط ٣ ـ ١٩٧٧
ص ص ٨٢ ـ ١٠٣

ان من المسائل التي توقفت عندها كذلك ، ووجدت لها حلا وفاقا ، مسألة المنهج الذي سأدرس على ضوئه أسلوب السرد القصصي في القرآن . ولما كانت مناهج البحث شائعة ومتاحة للباحث ، فإنني استعرضتها ووقفت عندها لأتخير المنهج الذي يفرضه درس الأدب القرآني .

ان هذه المناهج ثلاثة ، الاستدلال ، والاستقراء ، والاسترداد ،

١ ـ الاستدلال بايجاز ، هو البرهان الذي يبدأ من قضايا نسلم بها ، وننتقل منها الى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة ، دون اللجوء الى تجربة كما هو الحال في معظم مسائل الرياضيات ، وفيه ينتقل الباحث من العام الى الخاص .(١)

٢ ـ المنهج الاستقرائي ، وهو باختصار ، منهج تجريبي يتم الانتقال فيه من الخاص الى العام ، على عكس المنهج الاستدلالي ، وخطواته تبدأ بالوصف أو التعريف ، ثم التفسير الذي ينصب على ظاهرة ما ، ثم وضع فرض يمكن أن يكون قضية تفسيرية للظاهرة ، وتأتي بعد ذلك خطوة امتحان صحة هذا الفرض ،

---

(١) ـ د. عبد الرحمن بدوي : مناهج البحث العلمي ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ ط ٣ ـ ١٩٧٧

ص ص ٨٢ ـ ١٠٣

باجراء التجارب ، التي إما أن تثبت الفرض أو أن تلغيه (١)

٣ ـ المنهج الاستردادي ، هو في مجمله المنهج التاريخي الذي يقوم فيه الباحث بمهمة مضادة لفعل التاريخ الذي يسير قدما الى الأمام بالأحداث ، إذ يحاول الباحث استرداد تلك الأحداث بدوره (٢) .

ولقد انتخبت المنهج الاستقرائي ، أو انتخبه بحثي ، ووضعت في اطاره الفرض الذي هو عنوان البحث ، بعد مراجعة وافية لمادتي ، ثم سعيت بالكتابة لأقيده بشواهد وعناوين أحقه بها ، ثم إنني عولت على اتجاه نقدي آنست اليه ، هو الاتجاه التحليلي ، طلبا للحيدة وللتحرر من الملابسات الاجتماعية والتاريخية والفلسفية والبيئية ، التي اصطبغت بها الاتجاهات النقدية ، وفي ذلك ارتبطت بالنص ، وان كان ذلك قد تم في حدود فن القصة الموضوعي ، بأركان القصة وبنائها المألوف دون الشاط منها ، أو المبتعد عن الأعراف ، فذلك ما لم أتورط فيه ، ولم أجد له ركزا في القصص القرآني .

---

(١) ـ د. عبد الرحمن البدوي : مناهج البحث العلمي ـ ص ص ١٢٧ ـ ١٣١ وانظر كذلك ، د. غازي حسن : مناهج البحث ـ مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ـ ١٩٨٤ ـ ص ص ٨٤ ـ ١١٤

(٢) ـ د. عبد الرحمن بدوي : مناهج البحث العلمي ـ ص ص ١٨٣ ـ ١٨٨

واذ جاء دور اللغة ، فاني قرأتها بكل امكانات قراءة التراكيب وردها الى مكوناتها الأولى ، وقد اهتممت اهتماما خاصا بدراسة طبيعة الأسلوب وتنوعه وتوافقه مع الحدث والشخصيات واساءة المتلقي له .

واستعنت في كل ذلك ، بما أتيح لي من نخائر لدرس اللغة ، ابتداء من فكر عبد القاهر الجرجاني ، الى اجراء المدي المتأثر فيه بالمناهج الأسلوبية الحديثة ، الرابطة بين علم الأسلوب واللغة والنحو ، كما لم أغفل عن درس الصوت في التبليغ وفي صناعة الكلام البشري الذي ينوب عن نقله الاعجاز القرآني في تضاعيف السرد .

ولقد جاء بحثي تبعا لتسخير المنهجين ، على الشاكلة التالية :

الباب الأول ، وسميته : مقومات القصة ، وأسلوب السرد القصصي في القرآن .

ولقد فرعته الى ثلاثة فصول ، هي على التوالي :

الفصل الأول ، طبيعة الحدث ، وعنصرا الزمان والمكان في السرد القصصي في القرآن .

وقد تناولت فيه الحدث من حيث طبيعته ، وعلاقته بالزمان والمكان ، فأثبت بأنه انقسم في واقع السرد الى لون مألوف يقود الى آخر غير مألوف ، والى لون تقود فيه الرؤيا قافلة الوقائع نحو النهاية المرموز اليها . وأثبتُّ أيضاً بأن ارتباط الحدث بالزمان والمكان ، كان لحتمية فنية ، واغفاله لهما كذلك ، كان للحتمية نفسها .

الفصل الثاني : الشخصية وأسلوب السرد القصصي في القرآن

وقسمته الى مباحث صغيرة ، تناولت فيها الأبعاد الجسمية والاجتماعية والنفسية للشخصيات ، فاستنتجت بأن السرد القصصي القرآني لم يغفل هذه الأبعاد ، وانما ذكر منها ما يخدم الغرض ويفي بالحاجة .

الفصل الثالث ، الصراع وأسلوب السرد القصصي في القرآن .

وهي أول محاولة لدراسة الصراع في القصص القرآني ، تتبعت فيها خصائص هذا الصراع في نماذج قصصية انتخبتها من جملة القصص القرآني ، لتوافرها على مختلف ألوان الصراع ، وتوصلت الى حقيقة علمية تؤكد بأن الشخصيات المتصارعة لم تكن مقطوعة عن المقدمات الأساسية ، بل تساندها هذه المقدمة ، وتحركها

للسعي في تحقيقها، بارادة قوية لاتعرف الهوادة ولا اللين.

وكان الصراع في أغلب صوره يبدأ صراعاً فكرياً ، ثم يتدرج الى صراع مادي تعتمد فيه الشخصية الشريرة على القوة المادية المرئية ، في حين تسير الشخصية الخيرة وفق إلهام إلهي، وعون رباني . وفي أغلب صوره ، بل في كلها كان ينتهي بانعقاد النصر للخير على الشر .

الباب الثاني

وسميته : اللغة وأسلوب السرد القصصي في القرآن .

ولقد فرعته الى تمهيد وأربعة فصول .

ـ التمهيد : وتناولت فيه مفهوم الأسلوبية بصورة مختصرة، وكذا مفهوم الأسلوب عند الأقدمين والمحدثين ، ومدى استجابته لأطراف المثلث التقليدي ، (الباث ، والمتقبل ، والنص) .

ـ الفصل الأول :الايجاز والبسط في أسلوب السرد القصصي في القرآن ولاحظت بأن أسلوب القص يختلف طولا وقصراً حسب المواقف والحالات النفسية للشخصيات .

أي أنه يقوم على الجمل القصيرة الموقعة ، اذا كان الموقف انفعاليا ، حتى يحصل التأثير المنشود .

ويستخدم البسط والتوسيع حين يتطلب الموقف الاقناع والافهام .

وبها تتبين الخاصيتين يتسلط على المتلقي وينفذ فيه عوامله يوعي منه، أو دون أن يدري ، فيوقعه في أسره ، ويشده من عقاله .

الفصل الثاني : التناسب بين الجمل ، وأسلوب السرد القصصي في القرآن .

وفيه وقفت على كيفية النظم الترتيبي للجمل والآيات في السرد القصصي ، فتبينت مسوغين أساسيين لهذا النظم ، تمثل أولهما في المسوغ العقلي لترتيب الجمل ونظمها في نسق كلامي له معنى ، وتمثل ثانيهما في المسوغ اللفظي المتمثل في الوسائط النحوية التي تولت التنسيق بين لبنات الأسلوب السردي ، فأوقعت كل لبنة من أختها موقع السداد ، وربطت كلا بما يناسبه .

الفصل الثالث : ظاهرة التوكيد، و أسلوب السرد القصصي في القرآن وتعد هذه الظاهرة ميزة أساسية في أسلوب السرد القصصي في القرآن ،تعكس قوة الصراع وحدته بين الأنبياء والكفار خاصة ، وبين الشخصيات الخيرة والشريرة بصفة عامة ، حتى

أن القارئ أو السامع يحس بأن الأسلوب نفسه يصارع ويناضل ، وهذه هي طبيعة أسلوب السرد في القصص القرآني ، لم يلتزم الحياد أمام المواقف ، بل يخوض المعمعة الى جانب الشخصية وناصرها .

الفصل الرابع : التوافق الصوتي ، و أسلوب السرد القصصي في القرآن.

ولقد تناولت فيه الأصوات وتآلفها داخل الكلمة والجملة ، ثم موافقة الأصوات لما عبرت عنه من أحداث ، وأخيرا موافقة الأصوات للشخصيات ، فوضحت خصائص هذا التوافق الصوتي في قصص القرآن ، وكيفية تجسيد القص للسامع والقارئ في صورة صوتية معبرة .

وإذ أتممت هذا البحث ، فالله أرجو أن يثيبني عليه بقدر ما أضمرت من نوايا حسنة ، وما أردت به أن ألبث ما استطعت في رحاب من بيان الله .

وعلى الله قصد السبيل .

الباب الأول

مقومات القصة
وأسلوب السرد القصصي في القرآن

الفصل الأول

طبيعة الحدث وعنصرا الزمان والمكان في السرد القصصي في القرآن

١- طبيعة الحدث
٢- زمان الحدث
٣- مكان الحدث
٤- تقويم الفصل

١ ـ طبيعة الحدث في السرد القصصي في القرآن .

يقع الحدث في السرد القصصي القرآني ، في الأغلب الأعم ، على ماكلتينة (١)

١ ـ وقائع مألوفة اعتاد الناس مثلها ، ودرجوا على رؤية منوعها ، تصير الى أخرى غير مألوفة ، تخرق الناموس وتجري على غير سنن ، وتجعل من تصيبهم أحاديث وعبرا .

ب ـ أعمال تبدأ برؤيا ، ثم تجري على وتيرة من صنف ما جرت عليه الأولى ، وقد تصل الى غايتها بتحقق الرؤيا ، حيث تتوافر العبرة ويصل الفك في النبي الى مستقر من اليقين .

والحدث في القصص القرآني رُكِّبَ على هذه الشاكلة المزدوجة ليبين قدرة الله خالق كل شيء ، وإعجاز هذه القدرة وتصريفها في الخلق ، وليسلط أضواء كاشفة على طبيعة الرسل ، من حيث انهم بعثوا مبشرين ومنذرين ، وأنعم على صلة بالله ، " وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ

---

(١) ـ الحدث في اللغة : هو وقوع شيء لم يكن ، حدث أمر : أي وقع انظر : ابن منظور : لسان العرب ـ ج ٨ ـ دار صادر بيروت ـ ص ١٣١

والحدث في الاصطلاح النقدي : يعني تركيب الأفعال أي تسلسلها وترابطها . انظر : د. أحمد كمال زكي ـ دراسات في النقد الأدبي ـ دار الأندلس ـ ط ٢ ـ ١٩٨٠ ـ ص ٥٩

للمقدمات الفاسدة من قبل الكفار والعصاة والمنافقين ، الى غير المألوف و الغريب ، ولكنه مألوف بتصور ما ،أومخفف الغرابة، أو يتخلله اللطف .

وسنضرب أمثلة للّونين في القصص القرآني ، فنتتبع تسلسل كل منهما وتطويره ، من بدايته المألوفة المعهودة ، الى غايات درجنا على تسميتها بالمعجزات أوالآيات البينات ، وسنرتب الأمثلة وفقا لأزمنتها التي كثيرا ما تتواتر مع مجيء الرسل وتحملهم الرسالة .

١ ـ اللون المألوف الآيل الى غير المألوف .

وما نبدأ به من اللون المألوف الذي يتحول الى غير المألوف ، وقائع قصة ابني آدم : قابيل ، وهابيل .

ان الحدث المألوف في وقائع هذه القصة،يتمثل في تقدم الأخوين بقربانين الى الله ، " فتحرى هابيل أجود غنمه وأجود طعامه فقربه ، وتحرى قساين شر ماله وقربه "(١)، وانتظرا القبول منه ، وكل منهما لا يعلم موضعه عند خالقه من القبول أو الرفض ، حتى يقع برهان من الله ، وتحدث آيته التي قد تكون مألوفة

---

(١) ـ المسعودي :مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ م ١ ـ
دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٢ ـ ص ٣٠

على زمانهما ، وغير مألوفة لنا نحن الذين اعتدنا السوء ، واطمأن لنا إلى حد ما الريث للمثوبة والعقاب .

والبرهان الذي وقع ، وهو كذلك الآية ، يحمل دلالة رمزية للرضى من أحدهما ، والرفض من الآخر ، الرضى من هابيل ، والرفض من قابيل ، " وكانت علامة القبول في ذلك الزمان ناراً تأتي فتأكل المتقبل ولا تأكل المردود "(١).

ويفهم الأخوان من هذه الظاهرة أن الله تقبل قربان أحدهما وهو هابيل ، دون أن يتقبل قربان الآخر ، وهو قابيل ، فيمتلئ قلب قابيل ، وهو صاحب القربان المردود ، حفيظة على أخيه وموجدة ، وينذره بالقتل ، ثم يقتله بعد أن يأبى الأخ الصالح هابيل أن يبسط يده اليه ليقتله .

وبرهان تال عجيب آخر يطر أعلى سير الأحداث ، وهو من تصريف العناية الالهية ، ظاهره الرحمة ، وباطنه موالاة تأنيب الضمير والعقاب ، فما يكاد قابيل ينفض يديه من قتل أخيه حتى تطرأ له مشكلة لم يكن يحسب لها حسابا على مايبدو ، وهو أن فعل القتل خلف له جثة لا يعلم كيف يواريها ، ولكن الله يرسل اليه غرابين يتعاركان ، فيردي أحدهما خصمه ، ثم ينجز

---

(١) ـ الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ـ م ٢ ج ٦ ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ص ٧٢

ونجد مثل النمط الحدثي المتكون من الوقائع المألوفة الآيلة الى غير المألوفة، في قصة أخرى ، هي تلك التي كانت بين نوح وابنه ، حين أراد استنقاذه من الطوفان ،فأبى الابن وجادل أباه بمقدار ماظهر له من الأمر ، وما سارت عليه قوانين الكون ، وما عهده في اختلاف الليل والنهار ، وما تيسّر حوله من طبائع الأشياء ، ومن الأرض وخصائصها وهيئاتها ، ومنها مايحمي من الوابل أ والمطر أو السيل ؛ إذ زعم الابن لأبيه ، في محاورة ، انه سيأوي الى جبل يعصمه من الماء ، وأفاده الأب النبي بأنه لاعاصم من أمر الله إلاّ من رحم ، قال تعالى سارداً هذه المحاورة: "وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ، يَا بُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَافِرِينَ ، قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ "(١).

وهكذا الحدث الكبير غير المألوف يأخذ بعقب ماترتب على قول ابن نوح من فعل وأداء ،نتمثله في صعوده الى الجبل، وهلاكه حين فاض التنور ، وبدأ الطوفان ، وحال الموج بينه وبين أبيه ، فكان من المغرقين(٢).

---

(١) ـ سورة هود : ٤٢، ٤٣

(٢) ـ أقام نوح ومن حمل معه في السفينة على ظهر الماء ستة أشهر ، وغرق جميع من بقي على الارض.

انظر : المسعودي : مروج الذهب ـ م ١١ ـ ص٣٤

وكان فعل الطوفان أمرا غير مألوف بِتِلْكَ الصورة عند البشر، لم يصدقه ابن نوح نفسه ، ولم يكن نوح أيضا يعرفه الا بما أَوْحَى اليه الله من علائمه ونُذُرِه ، فصار هذا الفعل هو الخارق في السرد القصصي القرآني .

وتشكيل الحدث في القصص القرآني على الصفة التالفة التي لاقيناها في المثالين السابقين المتعلقين بابني آدم وابن نوح ، نجده كذلك في وقائع قصة ابراهيم مع النمرود وشيعته وحلقات الاجراء في الجزء الأول المألوف من هذه القصة معتادة ، من حيث تكسير ابراهيم الأصنام التي لاتنفع ولا تضر ، والتي يقول في واحدها ابن الكلبي : " اذا كان معمولا من خشب أَوْنَحَبٍ أَوْبِنْ فضة على صورة انسان ، فهو صنم ، واذا كان من حجارة فهو وثن "(١) ثم استجواب ابراهيم من قبل الكفار عن علة تكسير هذه الأصنام التي تعد آلهة ، وردود ابراهيم المؤنبة للنمرود وأتباعه، وحطه من قدرهم ، وتسفيه عقولهم ، فهذه الحلقات مايمكن أن تدخل في باب التقاضي والتحاكم الْمَعْهُودَيْنِ ، والاعتصام الشائع ونفاد الصبر كذلك ، والحكم بالاحراق الذي صدر على ابراهيم،

---

(١) ـ ابن الكلبي : الأصنام ـ تحقيق : احمد زكي باشا ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٢٤ ـ ص ٥٣

هما من الأعمال العادية التي يَبْرَكَنُ اليها الطغاة ، حين تفلس حججهم العقلية ، وتغدو قلوبهم هواء ، ولنتتبع الحلقات تتالى في تَمَاءٍ ، " قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ، ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ، قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ، أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ "(١)

إِنَّ الفعل الخارق للعادة هو الناموس الذي تسلط على النار بعد ذلك ، فأبطل قانون الإحراق فيها ، وأبقى على خاصية الإنارة والإحراق ، عندما أمر الله النار قائلاً : " كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ "(٢) ، فلم تحرق منه إلاّ وثاقه(٣) .

إن هذا الفعل كان آية مِنْ آيات الله ، وعلامة من علاماته ممتنة على كل ما في الكون ، حتى أن النمرود لما أطل على ابراهيم من الصَّرْح وهو في النار ، رآه " في روضة ، فقال : إني مُقَرِّبٌ إلى إلهك ، فذبح أربعة آلاف بقرة ، وكَفَّ عن إبراهيم "(٤) .

---

(١) ـ سورة الأنبياء : من ٦٢ الى ظذ ٦٨

(٢) ـ سورة الانبياء : ٦٩

(٣) ـ الزمخشري : الكشاف ـ م ٢ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٨٦ ص ١٢٦

(٤) ـ نفسه : ص ١٢٦

ان النمرود لم يعتد رؤية مثل هذه الأحداث على أرضه . وإقرار منعادة من مكذب تؤكد صدوق الحدث عن المألوف، وإفلاته من أن يكون في طوق البشر ، مما يجعله من صنع الله سبحانه .

ومن المعروف أن آيات أخرى وبراهين خارقة للعادة ، تدل على سيطرة الله على الكون ، وهيمنته على أسراره ، قد دعمت برهان النار ، وهو البرهان الذي آلت اليه كثير من الأحداث المألوفة غير المحسوبة العواقب في قصة ابراهيم .

ومن هذه الآيات ، طلب ابراهيم من النمرود أن يأتيه بالشمس من المغرب ، وتغيير عادتها من اتيانها من المشرق ، ليعجز النمرود عن ذلك ، كعجزه أيضا عن أن يحيي ويميت ، بمعنى الاحياء والاماتة الحقيقيين .

ومن اللون الحدثي المتطور من المألوف الى طبيعة تبطل القاعدة وتخرق الناموس ، تلك الحادثة التي وقعت لموسى عليه السلام مع فرعون ، فكانت نقطة تحول في حياة بني اسرائيل ، حيث وضعت حدا لظلم فرعون اياهم ، ومنحتهم الحرية والسيادة ، ودفعت عنهم الجور ، فقد التمس موسى مع بني اسرائيل الخروج من أرض القبط ،

تنفيذا لأمر أوحي اليه من ربه[١]، وسار بهم في اتجاه لا يخلو من قصد ، وكلهم شعور بالخوف ، لعلمهم بأنهم " مطلوبون من فرعون وجنوده ، وهو جاد في ملاحقتهم يريد أن يعيدهم الى العبودية والقهر، لأنه معتقد بأن هؤ لاء الفارين هم جنود آبقون وأتباع مارقون "[٢] .

ولما تراءى الجمعان ، خشي أصحاب موسى من العاقبة التي ستكون أليمة لأن نهاية الأحداث أمام هذا الموقف لاتكون إلا بأحد طريقين ، " إما أن تستسلم الجماعة الضعيفة القليلة للقوة الغالبة "[٣] ، وعندئذ سيكون مصير أتباع موسى العذاب الأليم ، والإهانة الماحقة ، " وإما أن تشترك في معركة غير متكافئة

---

(١) ـ الوحي يكون على صور ثلاث:

إحداهما : إلقاء المعنى في قلب النبي ، أونفثه في رُوعه .

وثانيتهما : تكليم النبي من وراء حجاب ، كما نادى الله موسى من وراء الشجرة ، وسمع نداه .

وثالثتهما : حين يلقي مَلَكُ الوحي المرسل من الله الى نبي من الأنبياء ماكلف القاءه ، سواء أنزل عليه في صورة رجل ، أم في صورته الْمَلَكِيَّةِ، وقد جمعت الصور الثلاث في قوله تعالى : " وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ " ، الشورى: ٥١.

لمزيد من الاطلاع ، انظر : البخاري : صحيح البخاري ـ ١/٦ رواية الحارث بن هشام وانظر : الفارابي : المدينة الفاضلة ـ موفم للنشر ـ ١٩٨٧ ص١٠٥ ـ ١٠٧

(٢) ـ محمد أحمد جاد المولى :قصص القرآن ـ المكتبة الأموية ـ دمشق ـ بيروت ـ ١٩٧٨ .

(. عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن ـ دار الكتاب اللبناني بيروت

يستأصل فيها فرعون الباطش من بقي من بني اسرائيل "(١)

وسيرا الحدث في هذه الأزمة يتحول تحولاً لم تألفه النفوس، ولم تعهد مثله، حين يضرب موسى عصاه التي يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، الى البحر، فيضرب مَاءَهُ بها، فيحدث مالم يكن في الحسبان، وما لايترقبه العقل، إذ ينفطر الماء فطرين متباعدين، بينهما طريق يبس، فيدعو موسى بني إسرائيل الى السير فيه، فيلجونه وهم بين الذهمة والعجب، وبين اليأس والأمل، ويرى فرعون هذا الطريق فيقتحمه خلفهم هو وجنوده.(٢)

وما يكاد بنو إسرائيل يجتازون البحر، حتى تأخذ فرعون المفاجأة، حين يرى الموج يطبق عليه وعلى عيعته، ويأخذ بأنفاسه، ثم يميته الله ليطرح البحر بدنه خارج الماء.(٣)

ويدل الستار على هذا المشهد الخارق الذي كان تتويجاً لأحداث سبقته، اتسمت بعدم الغرابة.

---

(١) ـ السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث في قصص القرآن ـ ص ١٧٤

(٢) ـ عفيف عبد الفتاح طبارة : مع الأنبياء ـ دار العلم للملايين ـ ط ٨ ـ ١٩٨٠ ـ ص ٣٣٩

(٣) ـ يقول تعالى : " فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً "
سورة يونس : ٩٢

كان يمشي عليها مرحا مختالا لتبتلعه ، وتبتلع كل أموا له وكُلًّا وَلُوعِهِ ، وتزيل آمال الْمُتَمَنِّينَ من الذين يريدون الحياة وزينتها. ومن خلال تتبعنا لأحداث قصة قارون ، نتبين أنها ابتدأت مواتية، ثم صارت بالصفة نفسها إلى أن بلغت ذروة كانت تتطلب عندها حلا عاجلا ، وكان الحل انقلاباً لم تكن من صنفه المقدمات ، بل السوابق ؛ إذ كان حلاً عجيباً تداركت النفوس أمورها على إثره، وعادت الى صوابها ، فنطقت بالألسن ، " لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ "(١).

إنَّ القصة لمست أطرافها بهذه الحادثة ، ووضعت نهاية لاستطرادها، وهي نهاية لاطاقة للبشر بها ، إلاَّ أنها تنامت من الاحداث المألوفة، من سفساف القول الذي يجترحه العامة أحيانا ، وجهلة الكفار الذين يحسبون أنهم على علم ، مع أنهم لم يتمَّ امتحانهم بعد . إن سرد مثل هذه الاحداث في القرآن ، أدى بكفار مكة إلى وصف القرآن بأنه أساطير الأولين(٢) ، لأن عقولهم قصرت عن تصديق هذا التواصل الانقلابي

---

(١) ـ سورة القصص : ٨٢

(٢) ـ روي أن النظر بن الحارث حين سمع اقتصاص الله لأحاديث القرون الماضية قال فيما حكاه القرآن عنه : " لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ " الأنفال : ٣١ ـ وهو الذي جاء أيضا من بلاد فارس بنسخة من حديث رستم واسفنديار ، فزعم أنَّ هذا مثل ذاك ، وأنه من أساطير الاولين .

انظر : الزمخشري : الكشاف ـ م ٢ ـ ص ٢١٦

في تتمات الأحداث ، إذ أنهم لم يحكموا إلا بالظاهر ، ولم يدركوا أن وراء المحسوسات قوة الهية هي علة الوجود ، يجب أن تذعن لها ، على الرغم من أن الحس لا يقع عليها .

ب ـ الأحداث المبدوءة برؤيا

لم يكن تشكيل الحدث على الصورة التي أسلفناها ، من حيث انتقاله من حالة مألوفة إلى غير مألوفة ، هو الصيغة الوحيدة للحدث في السرد القصصي القرآني ، فثم صيغة أخرى يقوم فيها الحدث على رؤيا ، ترسم فعاليته وتحدد له النهاية ، من ذلك مثلا ما تشكلت في صورته قصة يوسف عليه السلام ، حيث ابتدأت برؤيا أبصر فيها يوسف في منامه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر في سجود له .

ولقد قص يوسف على أبيه ما رأى في منامه ، ويفطن يعقوب لما تحمل هذه الرؤيا لابنه من شأن ، ولما تُبَيِّتُ له من خطرٍ ،

= وانظر : النيسابوري : تفسير ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ـ المطبوع على هامش : جامع البيان في تفسير القرآن ـ للطبري ـ م ٦ . ج ٩ ـ دار المعرفة بيروت ـ ص ١٥٤

ويشاء الله أن تجيء سنون سبع مجدبة ، فيحصل " جوع وقحط ، لاسيما في البلاد المجاورة،كفلسطين ، لعدم استعداد أهلها لمثل هذه السنة "(١) ، فتجيء الوفود الى مصر تطلب الغوث والمدد .

ويحل إخوة يوسف بمصر فيمن يحلون ،فيعرفهم يوسف ،ويطلب منهم أن يحضروا أخاهم الذي لم يصطحبوه معهم ، وإلاّ منع عنهم الكيل ، فيراودون أباهم بشأنه ،فيرضى بعد إباء ، ويحتجزه يوسف بدعوى أنه سرق في رحله صواع الملك ،ويفقد يعقوب بصره من الحزن على يوسف وأخيه اللذين نهبا عنه ،ليستعيد بصره عندما يأتيه البشير بقميص يوسف ، بعدأن يتعرف منه عليه، ويدرك ، في الوقت نفسه ، أن أخاه محتجز عنده ، ثم يَفِدُ الأب والاخوة الى مصر ، فيدخلونها آمنين ، فيرفع يوسف أبويه على العرش ليسجدوا له جميعا .

وهكذا وجدنا الأحداث تسير وفق ماخططت الرؤيا ، حتى اذا تحققت، انتهت القصة(٢) . يقول تعالى على لسان يوسف : " يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي "(٣) .

وبذلك استدارت القصة وعادت من نهايتها الى بدايتها ، ليتحقق

---

(١) ـ عبد الفتاح طبارة : مع الأنبياء دار العلم للملايين ـ ط ٨ ـ ١٩٨٠ ـ ص ١٧٤

(٢) ـ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ـ دار الشروق ـ بيروت ـ القاهرة ط ٧ ـ ١٩٨٢ ـ ص ١٨٢

(٣) ـ سورة يوسف : ١٠٠

مارآه يوسف من أحداث في منامه ، تلك الأحداث التي أوجزتها الرؤيا ، أواقتصرت على آخرتها .

وفي ساق الرؤيا ذاتها ، وقعت رؤى ثلاث ، ألمحت بتحققها الى دفع الأحداث كي تحقق الرؤيا المحورية ، إذ نجد رؤيتي الفتيين الذين أُولِجَا السجن مع يوسف حيث أطلعنا السرد على مصيريهما ، من حيث ان أحدهما سيسقي الملك خمراً ، وسَيُصْلَبُ الثاني ، وليرشد الذي نجا الملك الى يوسف .

وتحققت رؤيا الملك كذلك بالكيفية التي أولها يوسف حين لجأ اليه الملك ، " يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ، أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ، وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ، قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ " (١) .

وبذلك التحقق تظهر فعالية هذا الأسلوب المعجز المغيب الذي ساق به السرد القصصي القرآني الأحداث ، من رؤيا ، ثم أحداث ، ثم تحقق الرؤيا .

---

(١) ـ سورة يوسف : من ٤٦ الى ٤٩

إن هذا الأسلوب مُسْتَنْسَخٌ من سَيْرِ الاحداث في العالم القديم ، وهو السير الذي لم يقع في إدراك الذين اعتمدوا على الملاحظة العلمية والتجارب ، وعلم التحليل النفسي (١).

ويدخل في اطار الحدث الذي تتولى فيه الرؤيا إلا يمَاضَ بما يليها من أحداث ، مارآه الرسول (ص) في منامه قبل احتدام المعركة في غزوة بدر الكبرى حيث بين له الله في الرؤيا كثرة المشركين قلة ، وذلك تثبيتا منه للرسول (ص) ، وللمؤمنين ، ورفعا لروحهم الجهادية الصادقة ، ودفعا لهم على مواجهة المشركين ، لأنهم "خرجوا من غير استعداد لقتال ، ولولا هذه الرؤيا النبوية المبشرة ، لاختلف أمر المؤمنين بين من يريد المواجهة وبين من لايريد "(٢).

إن الرؤيا هنا أدت دور الحافز الموجه للأحداث ، الواضع لنقطة الوضوح في الختام ، فكانت بذلك صادقة في دلالتها ، وليست فقط هي ارتباطا بين مقدمات ونتائج ، أو نتيجة لأمر يترقبه العالم

---

(١) ـ يرى فرويد ، مؤسس مدرسة التحليل النفسي ، أن الأحلام لاتتنبأ بالمستقبل ، وانما هي ظاهرة تكشف عن صراعات جنسية أو وجدانية يعانيها الفرد ، أو أنها تعبر عن رغبات مكبوتة منذ الطفولة .

انظر : د. حلمي المليجي : علم النفس المعاصر ـ دار المعرفة الجامعية ط ٥ ـ ١٩٨٣ ـ ص ٢٧٠

(٢) ـ د. عبد الحميد محمد الهاشمي : لمحات نفسية في القرآن الكريم ـ مكتبة رحاب ـ الجزائر ـ ص ٢٣

أويرغب فيه ، كما يرى بعض علماء النفس (١)

وتثمر الرؤيا إذ يدبر اللقاء في اليقظة ، فيرى المسلمون المشركين قلة ، (٢) فيتشجعون عليهم ، ويرى المشركون المسلمين قلة فيتدرجون اليهم، وتدور المعركة ، فتتحقق نبوءة الرؤيا ، وينتصر المسلمون.

ولقد عبر السرد عن الرؤيا وما تلاها من أحداث في قوله تعالى:

"إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً ، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ، وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ (٣) لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً " .

لقد جند الله الرؤيا لتتصل بالمسلمين الى ما ينتظرهم في آخر الغزوة من نصر ، فكان عدد الكفار أثناء القتال ، هو العدد الذي أحصته الرؤيا ، وليس هو العدد الحقيقي الذي وجدنا إلماعاً له في قول عبد الله بن مسعود الذي حضر القتال وشهد النصر، واستجوب أسرى المعركة عن عددهم .

وهكذا وجدنا الرؤيا لاتخطئ عيناً ، بل لتؤدي دورا هو ، بالتقريب، املاء لمعجزة الله بالحدوث والتكال الذي أوعد به الكفار .

---

(١) للاطلاع ، انظر : د. حلمي المليجي :علم النفس المعاصر ـ ص ٢٧٠

(٢) ـ قال عبد الله بن مسعود : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي ، أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، قال :فأسرنا رجلا منهم فقلنا : كم كنتم ؟ قال : ألفا .
انظر : الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ٢ ج ١٠ ـ ص١٠
وانظر:الزمخشري : الكشاف ـ م ٢ ـ ص ٢٢٥

(٣)ـ سورة الأنفال : ٤٣ ، ٤٤

٢ - الزمن والسرد القصصي

ان للزمن في بناء القصة دورا يشبه ذلك الذي يلعبه اللون في اللوحة الزيتية، فهو يعطي للحدث صبغة خاصة تشير للحين الذي وقع فيه، وتضفي على الجو العام له ظلالاً توحي بأبعاد دلالية، تسمح بها حدود التأويل(١).

والسرد القصصي في القرآن سخر عنصر الزمن لأمور عدة منها :

ا - التحديد التاريخي للأحداث.

ب - الاعجاز بذكر الزمن.

ا - التحديد التاريخي للأحداث.

ينقل السرد القصصي في القرآن الزمن الذي وقعت فيه الحادثة، مما يجعل الحادثة مبعثا للجدل، من حيث التصديق أو التكذيب، ويوهلها لتمامها وللتصور.

و الظرف الزمني الذي اختاره اخوة يوسف لتنفيذ المكيدة مثال على ما أسلفنا، اذ يقول تعالى : " وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ، قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ"(٢)، فلقد ورد الظرف "عشاء" في حادثة المكيدة وهو يحمل صفتين :

---

(١) التأويل عملية محدودة تخضع لعاملين:

ا - داخلي للنص: الموقف الذي يضع علامات لتأويل الأفعال

ب - خارجي عن النص : وهو المضمون الثقافي (المعرفة التاثرات، المراجع...)

(٢) سورة يوسف، ١٦

صفة اشارية تدل على الزمن الماضي الذي احتضن حادثة المكيدة، وصفة ايحائية تومئ إلى أبعاد قد تظهر من وراء اللفظ التصريحي ، المخول لوقوع الحدث بالفعل ،ولتوقع حدوثه ؛ ذلك أن هذا الميقات من الليل ساعد على أداء الفعل تحت جناح غسقه،دون أن يعلم أحد من أمر المكيدة شيئاً ،كما أنه من جانب آخر نَمَّ عن كذب أبناء يعقوب عما ادعوه من أكل الذئب لأخيهم يوسف وهم عنه غافلون ،لأنهم لو كانوا صادقين فيما أخبروا، لسارعوا الى أبيهم بالحدث في وقته ، لأن مثل هذا الحدث لا يسكت عنه لحظة "(١).

وبذلك يكون قد تآزر ظلام الليل مع ظلام الكذب على خفيا الحقيقة عن يعقوب ، غير أن يعقوب عليه السلام ، قد فطن للمكيدة ، ونفذ ببصيرته الى التدبير، وعلم أن لله شأنا في ابنه يوسف، وهو لابُدَّ بالغه .

ولقد حرص السارد على ذكر هذا الظرف الزمني "عشاء" لما له من أهمية في سير الأحداث ، ولما يوحي به من ارهاص بالحوادث المستقبلية ، ذلك أنه جعلنا نتكهن بما سيقع ليوسف من أحداث درامية تلي حادثة المكيدة،

---

(١) السيد عبدالحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن ص ٥٩

لأن " الضحاء " تتوالى بعده مواقيت أخرى ، ومن ثَمَّ فقد كان لفظا موحيا بما يلي الظلام ، من انجلاء للصبح ، قد يكشف الحقيقة ويزيل الأحزان ، لأنه ما كان لليل أن يستمر دون أن يكون له صبح .

ومما أسلفنا من قيمة الايضاح الزماني، نتبين ميقات المبارزة بين موسى والسحرة ، حيث جاء ذلك في قوله تعالى: " مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ، وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى " (١) .

ان اليوم الذي وقع عليه الاختيار، ليكون فضاء زمنيا للمبارزة، لَيَحْمِلُ من الدلالة الشيء الكثير، ذلك أنه " يوم عيد كان لهم ، أو سوق ، كانوا يتزينون فيه " (٢) ويتخذونه موعدا يتفرغون اليه من كل شغل ، ويقدمون على زهائه من كل صوب. ولقد وعدهم موسى ذلك اليوم، ليكون ظهور الحق وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد، " وليشيع أمره العجيب في الأقطار والأعصار والأكناف ، ففي ذلك تقوية دين الحق وتكثير راغبيه وقلة شوكة المخالف وتهوين عزائمهم " (٣) .

كما أن للضحى دلالة زمنية تصريحية توحي بأخرى رمزية،

---

(١) سورة طه ، ٥٩

(٢) الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن م٨ج ١٦ ص ص ١٣٤ ١٣٥

(وانظر الزمخشري : الكشاف ، م٣ ص ٧١

وانظر: القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١١ دار الكتاب العربي - بيروت ص ٢١٣

(٣) النيسابوري : غرائب القرآن ورغائب الفرقان - م ٨ ج ١٦ ص ١١٧

تومئ الى غاية الوضوح التي يريدها السارد، حتى تتبين الأمور، وتنجلي الحقائق، أمام كل ذي بصيرة، لأن أمر الله ليس فيه خفاء ولا ترويج، بل هو حقيقة ساطعة سطوع شمس الضحى (١).

إنّ لهذا الاختيار الزمني خطره في تآزم الأحداث، وفي تفجيرها، ذلك أنه جعل السحرة الذين استنجد بهم فرعون لتدعيم موقفه، يبذلون الحجج، لانتزاع الفوز في المبارزة، وتحقيق أملهم فرعون، وبذلك الحصول على الجزاء الأوفر، والمكانة العليا، وحفّز موسى عليه السلام للعمل على اظهار الحقيقة الالهية، وابطال زيف السحرة، وَمِنْ ثَمَّ الكشف عن ضلال فرعون، ليتبين الحق من الباطل، وتسفر الهداية من الضلال، وهذا أمام حشد كبير من القوم وأعيانهم، وفي وضح النهار، حيث تكون النفوس مرتاحة مشرقة، والرغبة قوية وأكيدة في التعرف على المنتصر والمنهزم.

وهكذا كان ذكر زمن هذه المبارزة من تدبير حكيم خبير، فالزمن فيها عنصر فعال، له وزنه وله ايقاعه، وليس بحشو أو فضلة في النص، كما أنه يلقي الضوء على مكر فرعون الذي يمثل الطرف المناوئ المضاد في القصة.

---

(١) خص موسى الضحى، لأنه أول النهار، فلو امتد زمن المبارزة فيما بينه وبين السحرة، كان في النهار متسع.

انظر: القرطبي، الجامع لاحكام القرآن، ج ١١ ـ ص ٢١٤

ومما أسلفنا من قيمة الزمن ، اثبات أن عذاب الله كان يقع على القوم الظالمين(١) تحت جناح الظلمة أحيانا ، وأحيانا أخرى في القيلولة ، "حين يسترخي الناس في النوم ، ويستلمون للأمن ، وهذا حتى يكون الأخذ فيهما أشد ترويعاً وأعنف وقعاً وأنكى كذلك الى التذكير والحذر والتوقي والاحتياط "(٢) ان ذكر الزمن بذلك ، يبين سيطرة الله عليه حيثما أراد ، بالعصاة والكفار ، ويؤكد طواعية الليل والنهار ، والأشهر والسنين لارادته ، شأنها شأن خلقات الأحداث .

ب - الاعجاز بذكر الزمن

يأتي ذكر الزمن أحيانا في السرد القصصي القرآني ، وكأنه المقصود لذاته ، ليبين وجه الاعجاز الالهي في استعماله ، وليوضح بأن الله "ليس خاضعا لما يخلق من أزمان مثلما نحن خاضعون ، وانما هو فوقها جميعا ومتعال عليها "(٣) من ذلك مثلا ماجاء في قوله تعالى : " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ

---

(١) - نهاية قوم لوط في سورة هود ، ٨١ - وفي سورة الحجر ، ٧٣-٧٠ - ونهاية قوم صالح في سورة الحجر ، ٨٠

(٢) - سيد قطب : في ظلال القرآن - م ٣ - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٥ - ١٩٦٢ - ص ١١٩

(٣) - مصطفى محمود : القرآن ، محاولة لفهم عصري - دار المعارف - القاهرة - ط ٤ - ص ١٧٠

وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ "(١) ،أوماجاء في قوله : " وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً "(٢) ، فالزمن الوارد في الحادثة الأولى ، مُسَخَّرٌ مع الحادثة ذاتها للارشاد الى المعجزة، وإغفالُه غير وارد على الاطلاق لأنّ القارئ يترقبه ليكتمل وجه الاعجاز .

وفي حادثة أهل الكهف ،نجدإثبات تسع السنوات له أهميته، فهو يدل على أنّ الله يتابع مفردات العدد ، كما يحصي مئاته .

ومثال آخر، لما أوردنا من ذكر الزمن لتوضيح الاعجاز، وعدم بتره من الحادثة ، ماأنبأنا الله به من الاسراء بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، والليل هنا ليل واحد، وكان الناس يقطعون المسافة في طرفي شهرين(٣) ،إلاّ أنه لما كان الفعل من الله ،فإنّ قانون البشر ملغى ،لأن كل فعل يقاس بقوة فاعله ، ولذا فلا بد أن يُنْسَبَ الزمان إلى قوة الفاعل ، فاذا نظرنا الى القوة في الفعل ، والى المسافة

---

(١) ـ سورة البقرة : ٢٥٩

(٢) ـ سورة الكهف : ٢٥

(٣) ـ ابن هشام : السيرة ،تهذيب عبد السلام هارون ، دار الفكر ـ بيروت ـ ص ٨٥

ومما أسلفنا من قيمة الزمن ، اثبات أن عذاب الله كان يقع على القوم الظالمين(١) تحت جناح الظلمة أحيانا ، وأحيانا أخرى في القيلولة ، "حين يسترخي الناس في النوم ، ويستلمون للأمن ، وهذا حتى يكون الأخذ فيهما أشد ترويعاً وأعنف وقعاً وأنكى كذلك الى التذكير والحذر والتوقي والاحتياط "(٢) ان ذكر الزمن بذلك ، يبين سيطرة الله عليه حيثما أراد ، بالعصاة والكفار ، ويؤكد طواعية الليل والنهار ، والأشهر والسنين لارادته ، شأنها شأن خلقات الأحداث .

ب - الاعجاز بذكر الزمن

يأتي ذكر الزمن أحيانا في السرد القصصي القرآني ، وكأنه المقصود لذاته ، ليبين وجه الاعجاز الالهي في استعماله ، وليوضح بأن الله "ليس خاضعا لما يخلق من أزمان مثلما نحن خاضعون ، وانما هو فوقها جميعا ومتعال عليها "(٣) من ذلك مثلا ماجاء في قوله تعالى : " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ

---

(١) - نهاية قوم لوط في سورة هود ، ٨١ - وفي سورة الحجر ، ٧٣-٧٠ - ونهاية قوم صالح في سورة الحجر ، ٨٠

(٢) - سيد قطب : في ظلال القرآن - م ٣ - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٥ - ١٩٦٢ - ص ١١٩

(٣) - مصطفى محمود : القرآن ، محاولة لفهم عصري - دار المعارف - القاهرة - ط ٤ - ص ١٧٠

وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ "(١) ،أوماجاء في قوله : " وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً "(٢) ، فالزمن الوارد في الحادثة الأولى ، مُسَخَّرٌ مع الحادثة ذاتها للارشاد الى المعجزة، وإغفالُه غير وارد على الاطلاق لأنّ القارئ يترقبه ليكتمل وجه الاعجاز .

وفي حادثة أهل الكهف ،نجدإثبات تسع السنوات له أهميته، فهو يدل على أنّ الله يتابع مفردات العدد ، كما يحصي مئاته .

ومثال آخر، لما أوردنا من ذكر الزمن لتوضيح الاعجاز، وعدم بتره من الحادثة ، ماأنبأنا الله به من الاسراء بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، والليل هنا ليل واحد، وكان الناس يقطعون المسافة في طرفي شهرين(٣) ،إلاّ أنه لما كان الفعل من الله ،فإنّ قانون البشر ملغى ،لأن كل فعل يقاس بقوة فاعله ، ولذا فلا بد أن يُنْسَبَ الزمان إلى قوة الفاعل ، فاذا نظرنا الى القوة في الفعل ، والى المسافة

---

(١) ـ سورة البقرة : ٢٥٩

(٢) ـ سورة الكهف : ٢٥

(٣) ـ ابن هشام : السيرة ،تهذيب عبد السلام هارون ، دار الفكر ـ بيروت ـ ص ٨٥

في الزمن ، وجدنا أن الزمن يتناسب عكسيا مع القوة ، فكلما ازدادت القوة قل الزمن ، والقوة التي فعلت في هذه الحادثة هي قوة الله ، ولذا نجد النتيجة " لا زمان "(١).

ولقد يستغني السرد القصصي في القرآن ، أحيانا ، عن الظروف الدالة على الزمن حقا (٢) ، ولكن يستعيض عنها بأعلام اقترنت بعصور بعينها ، فحين يذكر القرآن أسماء من مثل : آدم ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وموسى ، ومحمد (ص) ، فإن الزمن يكتمل للسرد .

إن هذه الأسماء تحمل في ذاتها دلالة الزمن ، ويؤرخ بها لأسماء أخرى ، كالتأريخ للوط بابراهيم ، " فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. "(٣)

وكالتأريخ لقارون بموسى ، " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى "(٤)

وكالتأريخ لمريم بزكريا ، " وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا "(٥)

إن عرض هذه النماذج من الشخصيات التاريخية التي تعد معلما زمنيا في تاريخ البشرية ، فضلا عما تصرح به الأدوات الدالة على الزمن ، لما يرد به على قول الذين يجردون القصة

---

(١) ـ محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن دار الكتب والوثائق القومية ـ ١٩٨٢ ، ص ٢٦٩

(٢) ـ يرى أحد النقاد أن النص الأدبي يتجاوز التعامل مع الأدوات الزمنية التقليدية إلى أدوات غير زمنية تقليديا فيحملها شيئا لم تخلق له ولم يخلق لها في أصل الوضع اللغوي .

انظر : د. عبد الملك مرتاض : النص الأدبي ، من أين ؟ وإلى أين ؟ ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر ـ ١٩٨٣ ـ ص ص ٨٣ ... ٩٦

(٣) ـ سورة العنكبوت : ٢٦ ، ٢٧

(٤) ـ سورة القصص : ٧٦

(٥) ـ سورة آل عمران : ٣٧

القرآنية من الزمن والمكان(١) وفي الوقت نفسه تشير الى أن الزمن في القصص القرآني مرتبط بالمعالم الشخصية للأنبياء والمرسلين الذين تداولوا وراثة الارض ، من آدم عليه السلام ، الى محمد (ص) .

ان القصص القرآني ، اذن ، ليس مجردا من الزمن ، بل محصور به ، يعبر اليه أحيانا بظروف الزمن ، ويرمز اليه أحيانا بأشخاص وأدوات حسية أو معنوية(٢)

---

(١) د. التهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن ـ الشركة التونسية للنشر والتوزيع ـ ط ١ ـ ١٩٧٤ ـ ص ٢٢٤
يرى بأن القصة القرآنية متجردة عن الزمان والمكان .

(٢) ـ قد يتعدى القرآن خصوصية الزمن المعروفة ، الى الزمن المطلق ، فلا يثبته .

٣ ـ المكان والسرد القصصي

يلعب المكان دورا هاما في بناء القصة وفي تركيبها، اذ يعد الاطار الذي تنطلق منه الأحداث، وتسير فيه الشخصيات، بل يتجاوز كونه مجرد اطار لها أحيانا، ليصبح عنصرا حيا فاعلا في هذه الأحداث وهذه الشخصيات، ومحكوما بدلالات اكتسبها من خلال علاقته بالإنسان.(١)

وفي السرد القصصي يمكننا أن نرصد حالتين مختلفتين، لذكر المكان تتمثل إحداهما: في إرفاق الأحداث بالأمكنة التي دارت فيها، وتتمثل ثانيتهما: في إخلاء الأحداث من مكان معلوم.

١ ـ إرفاق الأحداث بذكر المكان

مما وردفيه ذكر للمكان، ماسرده علينا القرآن الكريم من قصة "عاد" إذ جاء فيها ذكر المكان ذكرا صريحا، حيث قال تعالى: "وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ"(٢)، و"(٣) الأحقاف الرمل الذي يكون كهيئة الجبل"(٤)، وكانت مساكن عاد بهذه "الرمال المتطيلة

---

(١) ـ د. محمد يوسف نجم: فن القصة ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ط ٧ ـ ١٩٧٩ ـ ص ١٠٨ وما يليها

وانظر سمير المرزوقي، وجميل شاكر ـ مدخل الى نظرية القصة ص ٦٤، ٦٥

(٢) ـ سورة الأحقاف: ٢١

(٣) ـ الأحقاف: هو اقليم الرمال الممتدة بين حضر موت وبحر عدن ـ انظر: المسعودي: مروج الذهب ـ م ٢ ـ ص ٣٥٩

(٤) الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ١١ ج ٢٦ ـ ص ١٦

المشرفة "(١)

لقد وصف القرآن هذا المكان بالغنى وتوفر وسائل الاستقرار ،في الآيات التالية : " أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ "(٢) .

ان ذكر المكان هنا في هذه القصة ، وكذا ذكر خيراته، حتمه الحديث لتبرير ماستؤول اليه الأمور من نتائج ، ذلك أن النعم الكثيرة التي أكرم بها الله قوم عاد بهذا المكان ، الذي تحتضنه الرمال الموحشة، وتتهدده بالتصحر المدمرة للفكر والعرفان بالجميل ، للذي تفضل عليهم بالإغداق ، دون طلب أجر أو مثوبة ، ولكن القوم تمردوا على الله، فاستوجبوا رفع النعمة ، وتسليط ريح عاتية عليهم دامت سبعة أيام ، حولت خصب المكان الى قحط وجدب ، والأحياء إلى جثث هامدة ، فكانوا بذلك عبرة لمن سمع بخبرهم أو مر على مكانهم ، كما ستوضح الأحداث .

وذكر المكان هنا قد ساهم في صياغة الحدث ،وفي التمكين له وتسلسله وتبرير نتائجه .

ومن المواطن التي تعين فيها ذكر الأماكن كذلك ، قصة الاسراء،

---

(١) ـ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ١١ـ ج ٢٦ ـ ص ١٦
وانظر كذلك ، د سعد زغلول :تاريخ العرب قبل الاسلام ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ص ص ١٠٧ ، ١٠٨

(٢) ـ سورة الشعراء : ١٢٨ ... ١٣٤

فان ذكر المسجد الحرام الذي انطلق منه الرسول (ص) والمسجد الأقصى الذي انتهى اليه ، هو ذكر لسه وجوبه ، لأن ماكان معروفا عند القريشيين وغيرهم هو أنهم كانوا يقطعون المسافة بين المكانين في شهر بأكمله ، والرسول (ص) قطعها في ليلة واحدة ، " سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى "(١)

إن هذا فعل ليس في مقدور البشر في تلك الآونة التي كان النقل فيها يتم على الدابة والأرجل ، ولكن لما كان " الفعل من الله، فيجب أن تنسب القدرة الى الفاعل ،أيّ الى الله سبحانه وتعالى ، والله لاتحده حدود، ولا قيود، ولا تنطبق عليه مقاييس البشر "(٢) ماذن ، فالذكر هنا لم يكن ذكرا عارضا ، بل هو متمم للحدث ومظهر للاعجاز الذي يبينه الله فيه ،ويرتب عليه تكاليف للعباد، وإشهادا لهم على ما لايعلمون من أمر الغيب ، وامتحانا لهم كذلك ، وتعريفا بمناسكهم .

وقد نجد في بعض القصص امكنة كثيرة تقترن بها الأحداث، وفقا لنمو الحدث وتحول الشخصية و حركتها ،كذلك الذي نجده في قصة يوسف عليه السلام ، فلقد تعينت البداية في أرض الشام ،(٣)

---

(١) ـ سورة الاسراء : ١ ـ

(٢) ـ محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن ـ ج ٢ ـ دار الكتب والوثائق القومية ـ ط ٢ـ١٩٨١ ـ ص ٢٢٠

(٣) ـ كان يعقوب يسكن بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام ـ انظر : ابن كثير :تفسير القرآن العظيم ـ م ٤ ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٠ ـ ص ٥٠

ثم انقلبت الى مدين[١]، وجرت تتماتها في مصر .

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال ،أن نشير الى أن السرد القصصي لم ينقل لنا مايصبه وحدة المكان ، مثلما لم يفعل بالزمن ، فالسرد القصصي القرآني ليس الفن الوضعي الذي التزم بهذا القيد وراعاه وقدسه ، وتجاسر بعد ذلك ثائرون وتمردوا عليه ، وتحرروا من نيره[٢] ، وانما هي القدرة الالهية التي تطلع على خفايا الأمور مهما تعددت الأمكنة وتباعدت .

وذكر أكثر من مكان في القصة للسبب نفسه الذي أسلفنا ،لمعا تتم به قصة سليمان وملكة سبأ ، فثمة مكانان متباينان ،مقر سليمان بالقدس[٣]، ومقر ملكة سبأ باليمن[٤] ، " وبينهما وبين بيت المقدس مسيرة شهرين "[٥]

ان الفسحة المكانية هنا مهمة لرواية حادثة تاريخية عظيمة لاتقتصر على يوم واحد ، وان تدخل فيها من عنده علم من الكتاب ، لكن فسحة

---

(١) ـ مدين :أرض تمتد بين خليج العقبة الى موآب وأرض سينا ـ انظر :
د. محمد بيومي مهران ـ دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ ١٩٨٠ ـ ص ٢٩٧

(٢) ـ فكتور هيجو : مقدمة كرومويل ـ نقلا عن الدكتور ، علي جواد طاهر ـ مقدمة في النقد الأدبي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ط ـ ١ ـ ١٩٧٩ ـ ص ٢٠٦

(٣) ـ الصاوي :حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين ـ م ٣ ص ١٩٦

(٤) ـ سبأ :أرض باليمن ،مدينتها مأرب ،وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ،
ياقوت الحموي : معجم البلدان ـ م ٣ ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ ط ـ ١ ـ ١٩٥٧ ـ ص ١٨١

(٥) ـ الصاوي : الحاشية ـ م ٣ ـ ص ١٩٦

المكانين أتاحت لنا أن نتصور عرض سليمان على ملكة سبأ الاسلام ، ثم الإتيان بعرشها بالصورة الخارقة التي أدهشتها عند الحضور ، ثم اسلامها آخر الأمر .

إنّ تعيين الأماكن وتسميتها بأسمائها يوقعها موقعا من التصور ، وقد يحلها محل الامتحان ثم التصديق ، إذ أن بعضا منها كان لايزال قائما عند نزول القرآن بمثل هذه القصص ، ألم يُنَبِّهْنَا القرآن إلى أن مساكن الكافرين مازالت بيننا ، وأننا نسكن مساكنهم " وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ " (١) .

وانه من العسير أن نتصور القرآن غير مثبت لأماكن جرت فيها بعض قصصه ، حين يكون ذكر هذه الأماكن مهماً ومساعداً العقل البشري على التمثل ، سيما وأن الأحداث التاريخية العظيمة التي تميز القصص القرآني قد شاءت الارادة الالهية أن تسترسل في أماكن متفاوتة ، هي أماكن اشتمال الأحداث الحقيقية ووجودها ، فذكر الأماكن هذه ، فضلا عن أنه يبرز الصورة كاملة ، فانه كذلك يجعلنا نحس أننا طرف في القصة ، بما أن المكان قد يكون مكاننا كذلك .

---

(١) ـ سورة ابراهيم : ٤٥

ب ـ إخلاء الأحداث من المكان .

ان السرد في بعض القصص القرآني لم يورد المكان ، ولم يجر له ذكرا ، لأنه ليس هناك مايدعو الى ذلك ، فقد تكون ماتحمله القصص هذه فِكَراً عامة ، مما يَجْعُلُ معها التجريد لالقاء درس في الكون الفسيح الرحب الذي هو جماح الأمكنة .

اننا مثلا لانجد المكان واضحا في قصة الرجلين الذي جعل الله لأحدهما جنتين ، وأراد للآخر أن يكون فقيرا(١) ، فتاه أغناهما بما يملك على أفقرهما ، فأرسل الله على الجنتين حسبانا من السماء . فالعبرة تنجبر على كل مكان فيه غني متكبر ، وغني معدم ، وتنطبق على كل " من أقبل على الله وترك زينة الدنيا ، ومن اغتر بالدنيا وترك الاقبال على الله "(٢) .

ان هذه العبرة العامة هي التي حالت دون ارساء مكاني للقصة ، ومنحتها تأشيرة الانتماء للكون الفسيح .

وقد ضرب الله هذا المثل بعد ذكره لحادثة عزوف المشركين وتكبرهم عن مجالسة الفقراء والمساكين من المسلمين ، وافتخارهم عليهم بحسبهم ونسبهم(٣) ، فكان بذلك موعظة حسنة تطرق رأس كل متكبر وتزجره على هذه الأفعال .

---

(١) ـ انظر القصة في سورة الكهف ، من الآية ٣٢ الى الآية ٤٣

(٢) ـ الصاوي : الحاشية م ٣ ـ ص ١٣

(٣) ـ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ـ م ٤ ـ ص ٣٨٦

ومن القصص التي عدل فيها السرد عن ذكر المكان ، قصة الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، فتساءل ، كيف يحييها الله بعد موتها ؟ فأراه الله تجربة حية في نفسه وفي حماره ، سجلها الله في قوله تعالى دون تسمية المكان ، أو تسمية الشخصية ، " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... " (١) .

ان الحكمة جلية من عدم اثبات المكان الذي كان سيعد نافلة لو ذكر ، لأن الأحداث ليست بحاجة ملحة له لتتحول معه ، إذ لن يشترك معه في الحدث شخوص آخرون لهم مواقع اخرى ، ستلعب دورا مميزا بخصائصها ، كما لاحظنا في الأحقاف مثلا ، التي لعبت خصائصها الدور الأوفى ، اذ أن أصحابها لم يحمدوا الله على النعم ، فأذاقهم العذاب .

ومثل ماذكرناه أيضا عن تنكير المكان ، ماجاء في قوله تعالى :

" وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ، إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ... " (٢)

ان احداث القصة هنا منقطعة للتأمل النظري ، ولمتابعة تحليل أ صور بعينها في النفس البشرية العامة ، ولذا فلم يسجل للمكان فيها ذكر . وما يمكن أن نسجله على هذا اللون من الأحداث الخالية من ذكر المكان ، هو أن وطأها شديد على المتلقي ، فهي تستفز النفوس إلى سنن الله العامة في خلقه التي لم يشر لها بمكان أو زمن ، وتشد أغوار الناس وميلاتهم للتلقي الكامل .

---

(١) ـ انظر القصة في سورة البقرة ، الآية : ٢٥٩

(٢) ـ انظر القصة في سورة يس : من الآية ٧٨ الى الآية ٨٣

تقويم الفصل الأول

ان الحدث في السرد القصصي في القرآن يتشكل بنسبة كبيرة من صورتين مختلفتين ،وان كانتا على شيء كبير من التماثل والتماس، من حيث طبيعة الصورتين .

١ ـ صورة تتألف من حدث مألوف قد يجري به العرف والعادة ، يؤول الى آخر يكسر السنن وينأى عن الألفة ، ويخرق الناموس ، وقد يكون هذا اللون الآخر نتيجة للأول ونهاية له ، ويسوق الخالق سبحانه وتعالى من الموعدة والوعيد والانباء فيهما ،ما يجعله بصائر للناس ود ساتير تنوير وهداية ،وجلا حافلا بحياة الأولين والأمم التي خلت، ويزيح الستائر عن صحائف منسية لم يكن للأميين عهد بها ،لولا أن أعلمهم بها الله حين نزلها على قلب نبيه .

ان الحدث عندما يكون غير مألوف ، تترتب عليه فعالية تختلف تماما عن المألوف ، ويكون له وقع في النفس مميز عما للمألوف ،على أن كلا منهما يشد أزر الآخر ويسانده ، ليكونا الحدث العام .

ب ـ وثانية تتشكل من لون تتولى زمامه رؤيا تنبؤية ، ترسم معالم المستقبل لشيء سوف يكون ،فتتمشى الأمور في هذه المنطقة المجهولة بين التنبؤ والحدوث ، تستنطق أعماق الانسان بالترقب، حتى اذا انكشف الستر عما يحقق الرؤيا ويكون مصداقا لها ،ختم الحدث .

ان هذا الأسلوب المعجز المغيب الذي ساق به القرآن الأحداث، من رؤيا، ثم أحداث، ثم تحقق الرؤيا، قد أسفرت فعاليته بصورة أكيدة في صنع الحدث، وفي تعيين معالم سيره ومرساه الأخيره وبهذه الفعالية التنبؤية المؤكد تحقيقها، يوضع خط بالقلم الأحمر تحت قول الذين ينكرون رؤيا النبوءة .

ولقد ارتبط الحدث بالزمن والمكان اللذين كانا إطاراً ومسرحا لوقائع حيوات الأمم والأشخاص التي عَرَضَهَا القرآن في صور من أساليب السرد القصصي ،وان كان قد أغفل في بعضها ذكر هذين العنصرين ، للسماح للعبرة من الحدث في الانسحاب على كل زمان ومكان يوجد به انسان .

ان للزمان والمكان المجهولين دراميةتختلف عن المعروفين ،ولهما وقع أكيد يعتمد على الارسال والبث القرآني ، فتلك الأنباء التي ترد الى الناس غير معلومة المكان والزمان تشدأغوارهم للتلقي الكامل ، ولكنه يكون[1] كاملا من منطلق معلوم لديهم سيقفو عنصر الغيب الذي اعتمد كموقظ لمشاعرهم للتأمل والتدبر،حيث نبعثهم الى أماكن بين ظهرانيهم يمكنهم أن يروها .

---

(١)ـ ان القيمة الاخبارية لجزء ما، تتناسب عكسيا مع مدى توقع السامع له ، فكلما كان توقع السامع له كبيرا كانت شحنته الاخبارية ضعيفة .

انظر:

André Martinet : Elément delinguistique générale
Armant colin - 1968- P. 32

الفصل الثاني

- الشخصية وأسلوب السرد القصصي في القرآن

- تمهيد
١ - البعد الجسدي للشخصية
٢ - البعد الاجتماعي للشخصية
٣ - البعد النفسي للشخصية
٤ - شخصيات معاونة
٥ - تقويم الفصل

تمهيد :

لم يغفل السرد القصصي في القرآن الشخصية ما تستحق من اهتمام ، بل صورها أحسن تصوير ، وأعطاها قوامها الذي كانت تتسم به بين الناس ، بطريقة تخول لنا أن نتابعها بدقة ، وأن نميز بين أنماط الخبيث من الطيب ، ومن هو أهل للقدوة ومن هو حقيق بالتجنب ،

وشخصيات القصص القرآني من الكائنات التي كان لها وجود معروف ، ولم تكن هذه الشخصيات من عالم الخيال ، كما يقول أحد الدارسين : " وهنا أحب أن أصرح بأني لا أقصد الى القول بأن كل المواد

---

(١) ـ لم يرد مصطلح "الشخصية " في القرآن الكريم ، وانما ورد بلفظ المرء الذي هو بمعنى : الرجل والانسان ، بل لم ترد مادة : " ش خ ص " إلا في تشكيلتين اثنتين في القرآن كله ، ا ـ "تشخص" في قوله تعالى : " إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ" سورة ابراهيم : ٤٢ ، وفي قوله أيضا " وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا " سورة الأنبياء :٩٧ ،

انظر: محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ ـ ص ٤٧٧

وفي النقد : ورد المصطلح بمعنى الفاعل الذي يقوم بالفعل ،ويكون مدار المعاني الانسانية ، ومحور الافكار والآراء العامة .

انظر: د. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة ـ القاهرة ـ ص ٥٢٦

وانظر: د.أحمد كمال زكي ـ دراسات في النقد الأدبي ـ دار الأندلس ـ ط٢ ـ ١٩٨٠ ص ٤٢

القصصية في القصص التمثيلية وليدة الخيال "(١).

إن القرآن أكد أكثر من مرة على أن ما جاء في قصصه حق لا مرية فيه ولا شبهة، إذ قال: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ"(٢)، وقال أيضا: "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ"(٣)، كما أن ذكر الشخصيات بأسمائها وأحيانا، دليل على حدوثها في الواقع.

ومن الشخصيات التي ذكرت بأسمائها: أنبياء الله، نوح، وابراهيم وموسى، وعيسى، وداوود، وسليمان، ومحمد (ص) وغيرهم، بل إن ذكر أعداء لهذه الشخصيات، وكذا معاصرين لها، لمما يدعم هذا الحدوث. فمن الأعداء مثلا: فرعون، وهامان، وجالوت، وملكة سبأ قبل أن تسلم، هذا فضلا عن تكرار أسماء هذه الشخصيات وأفعالها، في صور متعددة.

وذكر الأماكن التي جرت فيها أفعال هذه الشخصيات، والتي مازال بعضها قائما، يعد دليلا ماديا على حدوثها في عالم الواقع. "ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ"(٤).

---

(١) ـ د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن ـ مطبعة الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٦٥ ـ ص ١٥٨ وما يليها

(٢) ـ سورة يوسف: ١١١. (٣) ـ سورة الكهف: ١٣. (٤) سورة هود: ١٠٠

ويجب أن يلاحظ في هذا المضمار ، " أن عجز علم التاريخ عن المعرفة أو الاستدلال ، ليس معناه عدم صحة ما جاء في القرآن" (١) فعلم التاريخ محكوم بعالم الظاهر وحده ، دون عالم عريض قائم هو عالم الغيب .

وسنسعى في هذا الفصل ، ان شاء الله ، للوقوف على أبعاد الشخصيات التي أسهمت في صيرورة الحدث وفي توجيهه ، سواء كانت هذه الشخصيات بشرية أم غير بشرية .

وطبقاً لهذا ، فستكون المحاور الأساسية التي نقف عندها كالتالي :

١ - البعد الجسدي للشخصية .

٢ - البعد الاجتماعي للشخصية .

٣ - البعد النفسي للشخصية .

٤ - شخصيات معاونة

---

(١) - محمد الغزالي : نظرات في القرآن - ص ١١٨

١ ـ البعد الجسدي للشخصية

لقد اتسم رسم الشخصيات في السرد القصصي القرآني في كثير من الأحيان بتحديد أبعادها الجسمية ، حتى تكون حركتها ماثلة للعيان غير مجردة ، ولتكون متفقة في ذلك مع قدرات العقل البشري وحواس البشر ، التي تتعاون جميعاً لتحويل ما نقرأ إلى صور ذهنية .

ومن الشخصيات التي يمكن أن نستشف أبعادها الجسمية مكونة السرد القصصي في القرآن ، ومسهمة فيه ، شخصية سيدنا يوسف ، وشخصية سيدنا موسى ، وشخصية فرعون .

ا ـ شخصية يوسف

ألمح لنا السرد القصصي بسمات جسدية خاصة بشخصية يوسف عليه السلام ، كان لها دور أساسي في إضاءة صورته لنا ، وإكساب أحداث قصته واقعية ونفوذاً وتعقلاً ، ابتداء من طفولته ، بطلب إخوته من بعضهم العمل على إخلاء وجه أبيهم منه ، بعد ما تأكد لديهم هيمنته على محبة أبيه ،(١)

---

(١) ـ يقال بأن يوسف وأخاه " بنيامين " كانا أخوين لباقي الاخوة من الأب فقط ، وقد ماتت أمهما وهما لم يشبّا بعد ،
انظر ، النيسابوري : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، المطبوع على هامش الجامع : للطبري ـ م ٧ ـ ج ١٢ ـ ص ١٠٣ .
وانظر ، عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ص ١٢٠

" إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ "(١).

لقد كانت هيمنة يوسف على محبة أبيه، لجاذبية أكيدة فيه ، تأكد تفرده بها بعد ذلك في الفعل المحوري في القصة ، وهو مراودة امرأة العزيز له ، " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ "(٢).

ومما يؤثر ، أنه قد " قُسِّمَ الحُسْنُ نصفين ، فَقُسِّمَ ليوسف وأمه النصفه، والنصف لسائر الناس "(٣). وتتأكد هذه السمات أيضا من خلال أقوال النساء في المدينة عن امرأة العزيز : " تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً "(٤) ومصادقة المعنية على كلا منهن بعد أن رأينه وقَطَّعْنَ أيديهن إكباراً ، تقول : " فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ "(٥)، وكذا حكم النسوة عليه بأنه " مَلَكٌ كَرِيمٌ "(٦)، لاعتقادهن بأنه " لاشيء أحسن من الْمَلَكِ "(٧).

---

(١)- سورة يوسف : ٨، ٩

(٢) - سورة يوسف : ٢٣

(٣) - الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن - م ٧ - ج ١٢ - ص ١٣٣

(٤) - سورة يوسف : ٣٠

(٥) - سورة يوسف : ٣٢

(٦) - سورة يوسف : ٣١

(٧) - الصاوي : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين - م٣ - ص ٢٤٢

وهكذا تتأكد فتوة يوسف وغضارة شبابه ، وحسنه وجماله ، مما كان علّة المراودة ، ومما جعل امرأة العزيز تجزم لنسوة المدينة بأن تسجنه وتهينه اذا لم يطاوعها ، " وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ "(١)

ان الصورة الجسدية هنا ليست مجرد هيكل لشخصية يوسف ، بل هي الصورة التي استصحبتنا معها منذ إلقاء يوسف في الجب ، إلى استقراره ببيت العزيز ، ومراودة امرأة العزيز له ، الى دخوله السجن ، وكذا خروجه منه ، وتوليه خزائن مصر ، الى رفعه أبويه على العرش .

ب ـ شخصية "موسى"

إذا كان السرد في قصة يوسف قد رسم هذه الصورة له عليه السلام حتى تكون مساعدة للمتلقي لتصور ملامحه ، فاننا نجده يرسم لموسى عليه السلام ، صورة خاصة ، ذات صلة وثقى بالمهمة المعهودة لها هو أيضا ، فلقد رسم السرد لموسى صورة جسدية دلتنا على ملامحه من خلاله أفعاله حينا ، ومن خلال أقوال الشخوص الذين أسهموا معه في الفعل أحيانا أخرى .

---

(١) ـ سورة يوسف : ٣٢

وتم هذا التدليل بوسائل ثلاث :

أولا : الاطلاع المباشر من القرآن الكريم ، من خلال سرده لصفات موسى ، حيث عرفنا بأنه بلغ حدا من الاستواء والنضج ؛ إذْ " كمُل جده وتم طوله وعرضه وخرج عن جملة الأحداث "(١) ، فصار بذلك أهلا لتلقي الحكمة والعلم ، قال تعالى : " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا "(٢) .

ان عرض هذه الصورة لموسى كان له دور تحضيري لما سيناط به من أحداث ، تلعب فيها قوته البدنية دورا أساسيا .

ثانيا : الإنباءُ عن البعد الجسدي عن طريق الفعل الذي زاوله موسى ضد القبطي ، حين استغاث الاسرائيلي بموسى ، " فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ "(٣) . ان معالجة موسى عدوه بوكزة(٤) واحدة في صدره زهقت لها روحه ، تعد دليلا واضحا على مايتمتع به موسى من قوة جسدية هائلة، وفي الوقت نفسه تعد تأكيدا لما صرح به السارد سابقا ، مما يجعل المتلقي لايدهش لنتيجة المشاجرة مع القبطي ، ولا يصدم بها ، لأنه كان

---

(١) ـ الخطيب الاسكافي : درة التنزيل وغرة التأويل ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٨١ ـ ص ٢٤٠

(٢) ـ سورة القصص : ١٤

(٣) ـ سورة القصص : ١٥

(٤) الوكز : الضرب على الصدر والجنب .

انظر : السيوطي : المزهر ـ ج ١ ـ ضبط وتصحيح وتعليق : محمد احمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار احياء الكتب العربية ـ ص ٥٥

معداً لها نهنيا من قبل .

وهكذا يكون السرد قد اتبع منهجا منطقيا في العرض، به يضع كل لبنة للتي تليها .

ثالثا ـ الاخبار عن صورة موسى الجسدية بوساطة ابنة شعيب، عندما عادت مع أختها ، بعد ما سقى لهما موسى غنمهما ؛ إذ طلبت من أبيها أن يستأجره لأنه قوي وأمين ، يعوض ضعفهم بقوته[1] فقالت : " يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ "[2] ، فلقد كانت القوة الجسدية ، فضلا عن أمانته هي الوسيلة التي أهلته للاستئجار .

ويمكننا القول أيضا بأن الصورة الجسدية التي رسمها السرد لموسى هي التي أعطته موغات الشخصية المحورية إزاء فرعون والملأ من قوم موسى وفرعون معا ، فكانت هذه السمات الجسدية البينة عونا للتصور البشري في تعقل سير موسى إلى أعتى شخصية

---

(١) ـ قال أبو اسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود، أنه قال :
أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته : "أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ... " ، والمرأة التي قالت لأبيها : "يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ... "، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .
انظر : الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ٧ ـ ج ١٢ ـ ص ١٠٤
وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ـ م ٤ ـ ص ١٧

(٢) ـ سورة القصص : ٢٦

في ذلك الزمان ، لاتؤمن إلا بالقوة ، ولا تخضع إلا لمنطقها ، وكانت موغلاً لنا لتفهم قيادته شعبا معقد النفس ، "صلب المراس ، عاش في ظل القهر والجبروت ، وطبعت نفوس أفراده على التلكؤ في الطاعة ، والمراوغة في المعاملة "(١) ، فامتلأت نفوس أفراده بالجبن والذل والحقد والقسوة ، ووطنوا على الخنوع للقوة القاهرة ، والانقياد للزعيم القوي الذي يهابونه ويخشون بأسه .

ولقد ظهرت فاعلية هذا البعد الجسدي لموسى ، في حادثة العجل التي اجترحها بنو إسرائيل عندما عبدوا العجل(٢) في غياب موسى في الميقات ، ذلك أنه لما عاد إلى قومه بألواحه ، وكان قد أخبره الله بردة قومه من بعده ، في قوله : "إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ "(٣) ، حاول معاقبة أخيه هارون ، ظنا منه بأنه لم يمنعهم عن هذا الفعل الشنيع ، الا أن هارون أخبره بأن القوم لما أنسوا منه ضعفا أهانوه واحتقروه ولم يمتثلوا لرأيه وتوجيهه ، رغم بيانه وقوة حجته ، "وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ،

---

(١) ـ سيد قطب : في ظلال القرآن ـ م ٣ ـ ص ١١٥٠ ـ دار الشروق ـ ط ٩ ـ ١٩٨٠ .

(٢) ـ انظر : الاهرام الدولي : العدد ـ ٣٧١٨٧ ـ القاهرة ـ المؤرخ بـ : ٠١ أكتوبر ١٩٨٨ ـ ص ٤ ـ في مقال بعنوان : صورة من طابا ـ إذ جاء فيه : بأن الاسرائيليين أقاموا على شط البحر نموذجاً لعجل على صورة عجل أجدادهم وجعلوه مزارا دينيا .

(٣) ـ سورة طه : ٨٥

قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (١) .

إن القوم استضعفوا هارون عليه السلام ، ولم يطيعوا أوامره ، لأنهم ما اعتادوا أن ينقادوا إلا لمنطق القوة المادية ، " وكان موسى صلوات الله عليه ، رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء ، شديد الغضب لله ولدينه " (٢) .

وهكذا يمكننا القول ، بأن السمات التي اتسم بها موسى ، عليه السلام ، كانت هي إحدى أسباب نجاحه وسيطرته على نفوس هؤلاء القوم .

ج ـ شخصية فرعون

إن السرد القصصي الذي خط لنا صورة جسدية لنبي الله موسى ، ما كان ليترك بَدَنَ فرعون دون أن يوحي برسم له ، أو مساعدة للذهن على تكوين خطوط عامة تمثله . وكل الآيات التي تصف فرعون تدل على أنه كان عاليا بجنوده ، وكفره ، وكان طاغيا بتكبره ، وأن له خصائص البشر الجسدية ، والمعاينة المباشرة لجثة فرعون موسى ، أو لجثث الفراعين من عَهْدِهِ ،

---

(١) ـ سورة الأعراف : ١٥٠

(٢) : الزمخشري : الكشاف ـ م ٢ ـ ص ٨٤

المحفوظة شبه سليمة في المتحف المصري[1]، تدل على أن أجساد الفراعين لم تكن تختلف عن أوساط أجسادنا الآن، طولا وعرضا وسمتا، على نقيض ما يتخيل البعض[2]، من أنهم كانت لهم أجساد العماليق، بل إن البعض يشير الى شخص فرعون موسى، على أنه لقب الوليد بن مصعب ملك مصر، وعلى أن الفرعنة هي الدهاء والمكر[3].

ان السرد في القصص القرآني لَصَحِيٌّ بذكر البعد الجسدي للشخصيات، فثم أكثر من مثال آخر، كذلك الذي جاء في قوله تعالى على لسان زوج ابراهيم: "يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ"[4]، أوماجاء في وصف طالوت: "قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ"[5]، أوماجاء في تعريف أهل الكهف: "إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى"[6]، أوما نطق به زكريا: "رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ

---

(١) ـ وقف الباحث على موميات الفراعين المحنطة بالمتحف المصري شخصياً وعاينها.

(٢) ـ د. سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ١٩٧٦ ـ ص ١٠٤ ـ يقول: والرواة مختلفون في أمر فرعون موسى، والغالب أنه من العماليق.

(٣) ـ الرازي: مختار الصحاح ـ مكتبة لبنان ـ ص ٢٠٩

(٤) ـ سورة هود: ٧٢

(٥) ـ سورة البقرة: ٢٤٧

(٦) ـ سورة الكهف: ١٣

عَيْبِاً ، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً [1]، الى غير ذلك من الأقوال والأفعال التي تصرح أو تلمح الى صورة جسدية أو صفة من صفات الشخصيات القصصية في القرآن .

ان السرد القصصي في القرآن لا يرسل الأوصاف أو السمات الجسدية للشخصيات فضلة ، وإنما يجعلها تدخل في تصميم الحدث وفي تصويره ، وتكون كمفصل متحرك من مفاصل الحركة العامة لنمو الفكرة .

---

(١) ـ سورة مريم : ٤

"البعد الجسدي للجماعة"

يتجه الرسم الجسدي في السرد القصصي القرآني لجماعة بأكملها، عند ما تكون هي المنوطة بفعل، وليس الفرد الواحد منها، مثلما نجد في قصة عاد، حيث يوضح لنا السارد الملامح الجسدية الجماعية لعاد قوم هود(١)، والغاية التي من أجلها وظف هذه الملامح الجسدية. لقد كانت القوة الجسدية لهذه الجماعة هي العنصر الفاعل في أحداث القصة، والخصيصة المحورية التي تتجاذب أطرافها، وتمسك بتلابيب خصائصها، وتنمي العلاقات بينها، وكانت هي القيمة المسيطرة في القصة والعامل المشترك بين الشخصيات، وهي القصة التي قصمت ظهر البعير، وقادت الأحداث الى نهاية أليمة سجلها لنا القرآن في قوله تعالى: " فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ "(٢).

---

(١) ـ ينسب الى عاد شعر يصف فيه صورته الجسدية، ويذكر نسبه، يقول فيه:

اني أنا عاد الطويل البادي ... وسامٌ جدي ابنُ نوح الهادي.

وهو من الرجز.

انظر: المسعودي: مروج الذهب ـ م ١ ـ ص ٤٤٥

(٢) ـ سورة فصلت: ١٥، ١٦

٢ ـ البعد الاجتماعي للشخصية

يضيء البعد الاجتماعي كثيرا من الشخصيات التي دار حولها السرد القصصي القرآني ، كشخصية يوسف ، أوموسى على سبيل المثال ،وغيرهما ممن ورد له ذكر في قصص القرآن .

ا ـ شخصية يوسف .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ان شخصية يوسف عليه السلام ، بعد القائه في الجب ، هي شخصية موكلة لرؤيا من عند الله ، وهي ضحية حسد وغيرة ، وهي مبيعة حينا بواسطة سيارة التقطوه ، وباعوه " بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ "(١). على أن قلة ثمنه المادي هذه ،تظل ترافقنا طيلة وجوده مع العشتري، وتحت امرة زوجه ، فهو فتاها الذي اشترته بدراهمها ، واعتقدت أنه ملك يمينها ، بما لايقاس به بعتاده الى ثرائها وَإِرَادَتِهَا ، وما ملكت يمينها من مال وجاه ونفوذ ، وبما وشت به بعد ذلك حياة الهوى والفراغ والشائعات واللغو والمآدب .

ويوضح البون الاجتماعي بعد ذلك أيضا تنظيم الخزائن،الذي رأيناه نتيجة حكمة يوسف يجتذب القوافل من فلسطين ، وفيها اخوة يوسف أنفسهم ، وقد جاؤ واليمتاروا .

---

(١) ـ سورة يوسف : ٢٠

والحياة الاجتماعية الفقيرة التي تخص موسى تتضح جلية كذلك ، من قبوله أن يستأجر ثماني حجج ، أوعشرحجج ،لقاء أن ينكح ابنة شعيب، كما كانت في أوضح صورها وموسى يتلمس وجه مدين ، داعيا ربه "رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ "(١) ، بما يتضح به البون الشاسع بين مادة فرعون وأمواله ، وكفاف موسى وفقره وقلة ذات يده، الا بالله ، فموسى " ضعيف لقلة ماله ، وأنه ليس له الملك والسلطان "(٢) على أن البعد الاجتماعي لموسى لايتجلى بصورة أوضح ، الابمقارنته مع فرعون الذي كانت له معه مواقف عدة ، ظهرت من خلالها أهم ملامح النعرات الطبقية في فرعون ، ومنها صفة التكبر والاعتزاز والغرور بالثروات الطائلة ، ذلك أنه لما دعاه موسى الى عبادة الله أبدى عجبا ودهشة "وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ "(٣) ، كيف يتجرأ ويدعوه الى عبادة من لايعرف ، وهو الذي تجري من تحته الأنهار ، ثم راح يثير سخيمة من حوله ، ويبعث فيهم الدهشة من هذا الفعل الجريء الذي أقدم عليه موسى ، ويقيم موازنة بينه وبين موسى في الجاه والثراء ، فتساءل : " يَا قَوْمِ ،

---

(١) ـ سورة القصص : ٢٤

(٢) ـ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ١١ ـ ج ٢٥ ـ ص ٤٩

(٣) ـ سورة الزخرف : ٥٢

"وكان طالوت دباغا يعمل الأدم "(١)، يقول تعالى في هذا العصار :

" وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ،قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ "(٢)، أوذلك الذي أطلعنا عليه السرد في قصة نوح قبله ، إذقال له الملأ من قومه : " مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ "(٣).

= وكذلك الزمخشري : الكشاف - م ٤ - ص ٢٥٨

(١) - المسعودي : مروج الذهب - م ١ - ص ٤٦

وانظر : الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن - م ٢ - ج ٢ - ص ٣٧٨

وانظر: القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - ج ١١ - ص ٣٢١

(٢) - سورة البقرة: - ٢٤٧

(٣) - سورة هود : ٢٧

٣ ـ البعد النفسي للشخصية

لقد زودنا السرد القصصي القرآني بالعوامل النفسية المهمة في فهم الشخصية ، وفي متابعة إدارتها الصراع مع خصومها ، مثلما وفر الأبعاد الجسمية والاجتماعية ، حتى لايظهر الصراع وافدا من خارج الشخصية،أومملى عليها من خلا فخطوطها .

إن حوارا بسيطا مسرودا بين ولدي آدم على سبيل المثال ، قبل وقوع الفعل ، يدلنا على نمطين نفسيين متفاوتين:

أحدهما عدواني حسود(١) ذاتي ، والآخر مطمئن محب للخير والسلام ، مع أن النموذجين أخوان من أبوين بعينهما ، تابا الى الله وأحنا المتاب ، (٢)"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا

---

(١) ـ يتحدث علم النفس عن الحسد ، بأنه يتضمن صراعا بين " تضخم أنا " وبين " تهديد أنا " في نفسية الحاقد ،فيحاول التخلص من بواعث هذا التهديد .

انظر : د. عبد الحميد الهاشمي : لمحات نفسية في القرآن الكريم ـ ص ١٤٢

(٢) ـ بهذا الفهم يمكن ضرب نظرية : " تين " القائمة على العوامل الثلاثة : الجنس ، الوسط ، الزمن ، حيث نجد الأخوين الاولين ، أحدهما صالحا ، والآخر طالحا .

فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ، وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ، قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ، قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ "(١).

ويمدنا السرد في قصة يوسف بالعوامل النفسية المركبة عليها شخصياتها ، قبل أن تجري وقائع المكيدة ، حتى يمكننا أن نتصور حلقاتها ، حيث يولد في نفوس اخوة يوسف حقد عليه ، مبني على حظوته لدى أبيهم ، بناء على لطفه وصباحته بلا شك ، وهما العاملان اللذان سنجدهما ، عندما يتفتح شبابه ويستوي عوده ، السبب في مراودة امرأة العزيز اياه ، فلقد كان يعقوب " شديد الحب ليوسف وكان يوسف من أحسن الناس وجها ، وكان يعقوب يؤثره على أولاده ، فحسدوه "(٢) ويصرح القرآن بما أضمره الاخوة: "إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ "(٣).

إنّ هذا التصريح نَمَّ عن نفوس دموية قاتلة ، لها ذرائعها

---

(١) - سورة المائدة: ٢٧ ، ٢٨

(٢) - الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن - م٤ - ج ١٢ - ص ١٦

(٣) - سورة يوسف : ٩

حقا ، من حب الاستئثار بالأب ، لكنهما تستوي في احتزان فكرة القتل والاتجاه اليه ، أوعلى الأقل الطرح أرضاً ، وهو قريب من القتل ، بالنسبة ليوسف الصغير .

ونفوس الإخوة تتفرع فيما بعد ، قبل تنفيذ المكيدة، حيث نجد أن هناك من قاد انقسام الرأي إلى فكرة الإلقاء في الجب، وعندها انتقلت إليه الآيات مباشرة في إضراب عن القتل ، " قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَاتَقْتُلُوا يُوسُفَ ، وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ "(٢).

ولم يسكت السرد القصصي عن تزويدنا بالبعد النفسي الذي سيحتضن قصة يوسف بتحولاتها المختلفة ، وتطورها ، من حيث العوامل النفسية التي كانت تحكم المترفات ممن سيتعرض لمكرهن يوسف ، ويدار صراعه لمجابهتهن ، حتى يكتب له النصر، ويشهد له بالبراءة .

---

(١)ـ يرى علماء النفس أن اخفاق الفرد في الحصول على حاجته نتيجة وجود عوائق مينشيء حالة من التوتر النفسي والتأزم ، يدفعانه الى اتخاذ عدة أساليب مختلفة توافقية، أوردود فعل متنوعة ،كأن يتخذ الفرد ،مثلا، أسلوب الاعتداء والتجني على مصدر الاحباط الذي أفسد مسعاه .
انظر : سيجموند فرويد : معالم التحليل النفسي ـ ترجمة : د. محمد عثماني نجاتي
دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ ط ٤ ـ ١٩٦٦ ـ ص ٩٤

(٢) ـ سورة يوسف : ١٠

ان السرد يدلنا على امرأة لديها فتى هو يوسف ، منذ أن اشتراه العزيز ، تراوده عن نفسه ، وعلى نساء يتسمعن مايدور في بيت امرأة العزيز ، ويثرثرن بما سمعن ، ثم يلبين دعوة امرأة العزيز التي تقيم لهن مأدبة ،ثم يظل حديثهن وشرورهن سرّاً بينهن ، حتى يذيعه القرآن ، " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ،إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ،إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ "(١).

فهذه نفوس انبساطية(٢) كلها تتفتح للحياة والملذات ، وفي الوقت ذاته لاتنغلق أمام التوبة اذا فُتِحَتْ أبواب التوبة ،وظهرت بوادرها ، إنّها في هذه الحالة ، يمكن أن تنقلب الى نفوس انطوائية(٣) ، لكنها

---

(١) ـ سورة يوسف : ٣٠، ٣١

(٢)ـ النفس الانبساطية : وهي النفس التي تتجه أساسا نحو الآخرين ، والعالم الخارجي ، وتتفاعل معهم .

انظر: ريتشاردز س . لازاروس :الشخصية ـ ترجمة: د. سيد محمد غنيم ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر ـ ١٩٨٥ ـ ص ٦٣

وانظر: د. حلمي المليجي : علم النفس المعاصر ـ ص ٣٥٧

(٣) ـ الشخصية الانطوائية :تميل الى التأمل والانشغال بعوالمها الداخلية الخاصة وتحليل عالمها الداخلي

انظر: ريتشاردز س لازاروس : الشخصية ـ ص ٦٣

وانظر : د. حلمي المليجي : علم النفس المعاصر ـ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧

تنطوي على حدود ،وعلى دين ، وعلى موعدة بالجنة ، " قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ، قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ ،الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ، أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ، وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ "(١) .

ومن الشخصيات التي تبدو ملامحها النفسية واضحة ، شخصية موسى عليه السلام ، فان استقراء النصوص القرآنية التي تتناول الحديث عن هذه الشخصية ، تجعلنا نطل على صفاتها النفسية .

لقد كلف الله موسى عليه السلام ، بتبليغ الرسالة إلى فرعون ، إلا أنه خاف من القيام بهذه المهمة بمفرده ، وطلب من الله أن يمده بأخيه هارون ليكون عوناً له ، وتعلل في ذلك بكونه يضيق صدره ولا ينطلق لسانه ، " قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ، فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ "(٢) .

ولبعض علماء النفس في ضيق الصدر وانعقاد اللسان رأي ،

---

(١) ـ سورة يوسف : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) ـ سورة الشعراء : ١٢، ١٣

بأن الشخص العصابي لايستطيع أن يتدفق ،ذلك أن العصاب هو نفسه نوع من الشلل ، أي " هو أشبه بفقدان كل الحواس ، أوكل إدراك في الحواس ، إنه يشبه الصمم والعمى "(١) .

ويبدو أن الضيق الذي كان يطرأ على صدر موسى ، كان بسبب الانفعال الناتج عن الصدمة بفعل أوسلوك غير طبيعي ، فكان عندما يصدم ينفعل ، فيصاب بنوع من العي أوالشلل اللغوي ، ولا يستطيع التعبير عن انفعاله باللغة ، فينجم عن هذا الانفعال توتر نفسي محسوب بانفعال الغضب ، يدفعه إلى الاستعاضة عنه بالتعبير الفعلي ، حيث يوجه انفعاله نحو مصدر الإحباط "(٢) .

ولقد أكد السرد القصصي هذه الظاهرة قبل صدام سيدنا موسى مع فرعون ، عندما استصرخه العبراني ، فثار موسى وانفعل ، ووجه ثورته وانفعاله إلى القبطي ، فوكزه، فأرداه قتيلا ، ثم أكد السرد هذه الظاهرة أيضا ، بعد صدام موسى وفرعون ، عندما عاد موسى من ميقات ربه ،فوجد قومه قد ارتدوا عما تركهم عليه ، وغضب غضباً شديداً ، وأخذ يجر أخاه من لحيته ورأسه(٣) لأنه كان خليفته عليهم في غيابه ،

---

(١) - أنابيس نن : كتابة الرواية - ترجمة : منقذ الهاشمي - الموقف الأدبي ، العدد : ١١٥ - تشرين الثاني - ١٩٨٠ - ص ٢٦

(٢) - راجع - د. حلمي المليجي : علم النفس المعاصر - ص ٩٤

(٣) - سورة الاعراف : ١٥٠

ولم يمنعهم من المخالفة في نظره .

على أن موسى كان يتخذ عند الانفعال الشديد مسلكا مخالفا للمسلك السابق، عندما يخاطب به ، فيتراجع مدبراً . و يبرز هذا في موقفه أمام عصاه ، حينما صارت حية تسعى ، حيث انه لما عاين ذلك " وَلَّى مُدبِراً ولم يُعَقِّبْ ، فذهب حتى أمعن ، ورأى أنه قد أعجز الحية ، ثم ذكر ربه فوقف استحياءً منه ، ثم نودي يا موسى أن ارجع حيث كنت ، فرجع موسى وهو شديد الخوف "(١) يقول تعالى : مصوراً هذا الموقف " يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ "(٢) .

وصور الرد الشعور بالخوف كذلك ، في نفس موسى عندما ألقى السحرة عصيهم يوم الزينة ، فخيل اليه بأن حبالهم وعصيهم تسعى ، وأوجس في نفسه خيفة كادت تفقده صوابه ، من تلك " الحيات ، وذلك على ما يعرض من طباع البشر على ما تقدم "(٣) ، ولكن الله تولاه بلطفه ، وأوحى إليه بأن يُلقِيَ عصاه ، وطمأنه بالنصر .

---

(١)- ابن كثير : تفسير القرآن العظيم - م ٤ - ص ٥٠١

(٢) - سورة النمل : ٩ ، ١٠

(٣) - القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - ج ١١ - ص ٢٢٢

والفوز عليهم ، " قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ، قَالَ بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ، إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى "(١) .

ونتبين عوامل الطيبة والتوبة في نفس سيدنا موسى ، النبي المرسل الذي صنعه الله على عينه ، " وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي "(٢) ، فلقد رجع موسى باللائمة على نفسه ، والى طلب الغفران من الله بعد قتله القبطي ، اذ قال : " رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَاغْفِرْ لِي "(٣) ، وقال بعد قسوته على أخيه هارون : " رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ "(٤) .

وهكذا كان موسى نموذجا للشخصية الانسانية والنبوية معا ، بما ركب فيه من صفات بشرية ، من فرح وحزن ، ولين وعنف ، وشجاعة واقدام ، فيما يحبه يرضي الله ، وسرعة الاقرار بالذنب والتوبة ،

---

(١) - سورة طه : من ٦٥ الى ٦٩

(٢) - سورة طه : ٣٩

(٣) - سورة القصص : ١٦

(٤) - سورة الاعراف : ١٥١

والندم، وكذا طيبة القلب، الأمر الذي جعل بعض الأقدمين يصفونه "بالعدة والقسوة"، وان كنا لانتفق معهم فيما ذلك، فنحن بازاء عدة في سبيل الله، وقوة لنصر دينه.

٤ـ شخصيات معاونة.

قدم لنا القرآن الكريم في سياق قصص الأنبياء والأولياء كائنات ثانوية معاونة، لعبت دورا في تطوير الأحداث، كان لابد من ابراز ملامحها، مثالا منها: غراب قابيل، وذئب يوسف، وعصا موسى، و غيرها من نكرات أخرى تم تعريفنا بها (٢).

ان هذه الكائنات، داخل القصة، لاتحمل أهميتها الخاصة في ذاتها، وإنما في علاقتها مع الشخصيات المحورية، ذلك أن فاعليتها لاتنتج إلا بقدر ما توجد من علاقة بينها وبين الرموز الأساسية من الآدميين والأناسي، من ذلك مثلا، أن فاعلية "غراب" قابيل ظهرت في قيامه بالدور التعليمي التدريبي للإنسان على بناء ساتر للموتى، إذ قام الغراب بارشاد قابيل الى كيفية استحداث الجدث الذي سيواري فيه سوأة أخيه، ويكون الغراب بذلك أول من ألْمَعَ بمواراة الجثث، وعدم

---

(١) ـ د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن ـ ص ٢٧٩

(٢) ـ للاطلاع، انظر: أحمد بهجت: قصص الحيوان في القرآن ـ دار الشروق القاهرة ط ١ ـ ١٩٨٣ ـ ص ٧، وما يليها.
وانظر: ليلى حسن سعد الدين: كليلة ودمنة في الأدب العربي ـ دار المعارف دمشق ص ٢٥٢، وما يليها

تركها في العراء تنتاشها ضواري الوحوش والطير ، مما كانت تفعله بعض الشعوب قبل الفتح الاسلامي .

ويقال بأن فعل الغراب كان " معجزا مثل حديث الهدهد ، وحمله الكتاب ، ورده الجواب إلى سليمان "(١) . قال تعالى حاكيا فعل الغراب: " فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ، فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّادِمِينَ "(٢) .

وهكذا ، ومن خلال العلاقة بين قابيل والغراب ، تبينت فاعلية هذه الشخصية المعاونة في صيرورة الحدث .

انه كذلك من خلال العلاقة التي قامت بين ذئب يوسف الموهوم ، ووعي يعقوب ، وذاكرة اخوة يوسف ، أخذت الأحداث صيرورتها ، ذلك أن شخصية الذئب في قصة يوسف قد قامت بدور لايمكن نعته بأنه دور الشكرات القصصية أو المسرحية ، لأنه كان الحلقة الوثيقة التي أفهمت يعقوب سرائر أبنائه ، فلم يصدقهم بعد ذلك قط ، وكذبهم ذلك التكذيب الذي أوحت به كلمة "عساء" الظرفية ، والذي

---

(١) ـ الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ـ م ٢ ـ ج ٦ ـ ص ٢٧

(٢) ـ سورة المائدة : ٣١

تبين له من خلال فحصه للقميص ، بأنه " لو أكله الذئب لخرق القميص " (١) . ثم إنّ الذئب هذا الذي لم يجترح أكل يوسف قط ، هو الذي ظل يسيطر على عقول إخوته ، من حيث إنه كان منفذ الخلاص من يوسف ، في إنباء أباهم بمآله ، على الرغم من أنهم متيقنون بأنه في غيابات الجب .

ويبدو أنهم ظنوا أن مآل يوسف الحقيقي كان في جوف الذئب دون غيابات الجب ، إذْ أنهم سلكوا معه وهو في شخص الخازن ، أو معاون الملك ، على أنه في حكم الأحاديث والماضي ، إلى أن فاجأهم بمعرفة عنهم ، فتساءلوا : " أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ " (٢) . يقول تعالى سرداً هذا الدور الذي ألقي على الذئب المزعوم وعلق به : " وَجَاؤُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ، قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ، وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ، وَجَاؤُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ " (٣) .

---

(١) ـ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ٧ ـ ج ١٢ ـ ص ٩٧

(٢) ـ سورة يوسف : ٩٠

(٣) ـ سورة يوسف : ١٦ ، ١٧ ، ١٨

ولقد أظهر الله عصا موسى على أنها فاعلة أيضا ، وفي الوقت نفسه مسخرة لأمره ولمشيئته ، وهي تقوم على فكرة التبدل والتغيير بمرتبة أعلى من مراتب أفعال السحرة بعصيهم ، والأفعال تلك هي التي كانت تميز ذلك العصر ، من حيث بلوغ السحر أعلى مرتبة من التقدم ، الأمر الذي جعل آية موسى تصدر من فرع المهارة ذاتها ، وهي مهارة السحر ومما يؤثر، أن " الساحر كان عندهم معناه العالم ، ولم يكن السحر عندهم ذمّاً "(١) ، قال تعالى: " قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ؟ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ، فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ "(٢) .

وهكذا ومن خلال ما ذكرناه ، يتضح لنا بأن الإخبار عن هذه الشخصيات المعاونة المختلفة الأجناس ، وبما قامت به من أفعال ، لا يمكن إغفاله عند ذكر الشخصيات المحورية ، واستنطاق أبعادها .

.....

(١)ـ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ١١ ج ٢٥ ـ ص ٤٨

(١) ـ سورة الشعراء: ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥

• تقويم الفصل الثاني •

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

يتم تعريف الشخصية في السرد القصصي في القرآن باسمها في معظم المواطن ، مثلما نلحظ في حالة الأنبياء ، فالشخصية في السرد القصصي القرآني لها حدوثه فعلي ، يمتد بأثره إلى الحاضر ، وهي تقوم بدور الهداية المستمرة ، ولذلك فهي معمورة في أغلب الأحيان ببعدها الجسمي ،مثلما نجد في قصص يوسف والنبي موسى،أوطالوت.

كما أنها مزودة بأساسها الاجتماعي ، فيمكن بأصوله تصنيفها فيما يمكن أن نجده الآن من الحقول الاجتماعية ، كالفقيرة،والمتوسطة، والفاحشة الثراء ، مع بون شاسع أحيانا ، كالذي نجده بين يوسف وامرأة العزيز ، أوموسى وفرعون .

ان الشخصية في السردالقصصي في القرآن كذلك ، مدعومة بخصيصة نفسية تؤهلها مع البعدين : الجسماني والاجتماعي لإدارة الصراع والتمادي فيه .

والخصيصة النفسية تيسر لنا أن ندرج الشخصيات بسهولة لوعثنا، في الأنماط النفسية المعهودة الآن في حقل علم النفس ،فالصفة الانبساطية التي ميزت نسوة المدينة في قصة يوسف ، على سبيل المثال ، لامراة فيها .

ان الشخصية بمفهومها الفني ، قد تمتد الى الكائنات المعاونة التي وردت في القرآن وطورت القصص فيه .

الفصل الثالث

الصراع وأسلوب السرد القصصي في القرآن

- تمهيد
- الصراع في قصة نوح
- الصراع في قصة يوسف
- الصراع في قصة موسى
- تقويم الفصل الثالث

• الصراع والسرد القصصي في القرآن •

تمهيد •

ان الصراع قائم في الحياة ، وهو سنة استمرارها ، وهو في القصة أحد عناصرها الضرورية لدفع الحدث ، على أن الصراع له أشكال عدة (١) :

ا ـ الصراع الداخلي النفسي الذي ينشب داخل نفس المرء ، ويقوم أحيانا بين فازعين : نازع وضعي ، ونازع مصدره أساسي هو من تكوين النفس البشرية ، كالصراع بين الحب والواجب •

ب ـ الصراع الفكري ، وهو قريب من الصراع النفسي ، ومشتق منه ، وقد يكون مترتبا عليه ، وقد يكون شبيها بالجدل (٢) بين طرف متفهم لأمرٍ مَا ، وآخر غير متفهم له ، وهذا اللون من الصراع يرتب للصراع المادي غالباً ، ويقود إليه ، ويعد وسادة له وركيزة ومعاناً •

---

(١) ـ الصراع هو المظهر المعنوي للمسرحية ، ويوحي بنوع من المباراة بين قوى متساوية تقريبا ، كما يوحي بالفعل وردود الفعل •
انظر : رونيه ويلك ، وأوستين وارين : نظرية الأدب ـ ترجمة : محيي الدين صبحي ، ومراجعة : د• حسام الخطيب ـ مطبعة خالد الطرابيشي ١٩٧٢ ـ ص ٢٨٢

(٢) ـ الجدل : قول يقصد به الى اقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقادا المتجادلين ، ويستعمل في المذاهب والديانات وفي الحقوق والخصومات والتفصل والاعتذارات • ولمزيد من الاطلاع ، انظر :
قدامة بن جعفر : نقد النثر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٢ ـ ص ١١٢

جـ ـ الصراع المادي الذي يقود اليه كل من لوني الصراع النفسي والفكري ، وفي هذا الصراع المادي يقدم كل طرف مالديه من قوة وعتاد وكيد وجلاد ، لينصر فكرته . ويتحتم أن تكون شخصية الخير والشرير على جانب متكافيء من القوة والسواء لدفع الحدث ، وان كان النصر لابد أن يكون في آخر المطاف معقودا للخير على الشر ، بعوامل من داخل البناء القصصي ذاته ، والقرآن الكريم يؤكد مبدأ نصر الخير وحامليي رسالته وتابعيهم في الدنيا والآخرة .

"إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ"(١) .

ونلاحظ أن الصراع في القصص القرآني ، في الأغلب الأعم ، يبدأ صراعا فكريًا له غايات متشعبة ، ثم يتحول إلى صراع نفسي في نفوس الأفراد ، وقد يصحبه صراع مادي أو ينتهي هو إلى هذا الصنف من الصراع الحركي ، وقد يتوقف أحيانا عند لون من هذه الألوان ، أو يقتصر على لونين منها ، وذلك وفقا للغاية التي من أجلها سردت القصة ، وسنناقش ، إن شاء الله ، في هذا الفصل تلك الالوان من الصراع التي تتوافر في السرد القصصي القرآني ، وتتميز ، بقدر

---

(١) ـ سورة غافر : ٥١

كبير، خصائص أسلوب السرد القصصي فيه ، متحولين الى نماذج منه في حركة الشخصيات ذاتها ، كما تتمثل في نوح وابنه ، ويوسف وخصومه، وموسى في مواجهة فرعون والملأ من قومه .

١ ـ قصة نوح وابنه

يمكن أن نقدر الصراع الوجيز الذي داربين الابن العاق وأبيه النبي، على أنه ،كما سبق أن بيّنا في الفصل الاول ، صراع فكري بين كافر ومؤمن ، انتقل الى صراع مادي صرف ، بأن تحول الخصم الى حركة مادية صرفة، أُوأمد لهذه الحركة المادية الصرفة، بانهار خطاء لطريق جبل يعصمه من الماء " مثل عصام القربة الذي يشدبه رأسها فيمنع الماء أن يسيل منها (١) " ،ثم اعتصام النبي الأب الخير بالفلك الذي كان يبنيه ، ووصول المقدمات الأساسية (٢) الى ذروة ، هي فعل الهلاك بالطوفان للشخصية الكافرة ، والنجاة والحياة الجديدة لنوح ومن صحبه من رموز هذه الحياة ، " وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ

---

(١) ـ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ٧ ـ ج ١٢ ـ ص ٢٨

(٢) ـ المقدمة الأساسية : هي الفكرة الأساسية التي تحملها الشخصية وتنطلق بها من أجل تحقيقها ، وهي التي تحركها للفعل .

انظر: لاجوس اجري : فن كتابة المسرحية ـ ترجمة: دريني خشبة ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ ص ٤٥

فِي مَعْزِلٍ ، يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ، " (١) فهنا الصراع فكري ، قاد إلى صراع مادي ، وانتهى الى خاتمة خسر فيها الكافر ، وانتصر المؤمن ، وِفْقَ المقدمات الاساسية ، أي الفكرة الأولى .

ب ـ قصة يوسف

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ينبني صراع يوسف بصفة أساسية على ماسبق أن قدمه السرد القرآني وناقشناه في المباحث السالفة ، من حيث الأماكن المحددة ، والأزمنة المسفرة ، والأبعاد الجمية والاجتماعية والنفسية للرموز الخيرة والخصوم على السواء ، إذ أن الصراع يبدأ من تلك الفكرة المعطاة لنا من حيث وجود الحقد والغيرة في نفوس مستعدة للقتل ، قادرة على تنفيذه صارعة فيه ، " اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ " (٢) ؛

---

(١) سورة هود : ٤٢ ، ٤٣

(٢) ـ سورة يوسف : ٩ ، ١٠

والفوز عليهم ، " قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ، قَالَ بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ، إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى " (١) .

ونتبين عوامل الطيبة والتوبة في نفس سيدنا موسى ، النبي المرسل الذي صنعه الله على عينه ، " وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي " (٢) ، فلقد رجع موسى باللائمة على نفسه ، والى طلب الغفران من الله بعد قتله القبطي ، إذ قال : " رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَاغْفِرْ لِي " (٣) ، وقال بعد قسوته على أخيه هارون : " رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " (٤) .

وهكذا كان موسى نموذجا للشخصية الانسانية والنبوية معا ، بما ركب فيه من صفات بشرية ، من فرح وحزن ، ولين وعنف ، وشجاعة وإقدام ، فيما يحبه يرضي الله ، وسرعة الإقرار بالذنب والتوبة ،

---

(١) - سورة طه : من ٦٥ الى ٦٩

(٢) - سورة طه : ٣٩

(٣) - سورة القصص : ١٦

(٤) - سورة الاعراف : ١٥١

والندم، وكذا طيبة القلب، الأمر الذي جعل بعض الأقدمين يصفونه "بالعدة والقوة"(١)، وان كنا لانتفق معهم في ذلك، فنحن بازاء شدة في سبيل الله، وقسوة لنشر دينه.

٤ـ شخصيات معاونة.

قدم لنا القرآن الكريم في سياق قصص الأنبياء والأولياء كائنات ثانوية معاونة، لعبت دورا في تطوير الأحداث، كان لابد من ابراز ملامحها، مثال منها: غراب قابيل، وذئب يوسف، وعصا موسى، وغيرها من نكرات أخرى تم تعريفنا بها(٢).

ان هذه الكائنات، داخل القصة، لاتحمل أهميتها الخاصة في ذاتها، وإنما في علاقتها مع الشخصيات المحورية، ذلك أن فاعليتها لاتنتج إلا بقدر ما توجد من علاقة بينها وبين الرموز الأساسية من الآدميين والأناسي، من ذلك مثلا، أن فاعلية "غراب" قابيل ظهرت في قيامه بالدور التعليمي التدريبي للإنسان على بناء ساتر للموتى، إذ قام الغراب بارشاد قابيل الى كيفية استحداث الجدث الذي سيواري فيه سوأة أخيه، ويكون الغراب بذلك أول من ألمع بمواراة الجثث، وعدم

---

(١) ـ د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن ـ ص ٢٧٩

(٢) ـ للاطلاع، انظر: أحمد بهجت: قصص الحيوان في القرآن ـ دار الشروق القاهرة ط ١ ـ ١٩٨٣ ـ ص ٧، وما يليها.
وانظر: ليلى حسن سعد الدين: كليلة ودمنة في الأدب العربي ـ دار المعارف بدمشق ص ٢٥٢، وما يليها

تركها في العراء تنتاشها ضواري الوحوش والطير ، مما كانت تفعله بعض الشعوب قبل الفتح الاسلامي .

ويقال بأن فعل الغراب كان " معجزا مثل حديث الهدهد ، وحمله الكتاب ، ورده الجواب إلى سليمان "(١) . قال تعالى حاكيا فعل الغراب: " فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ "(٢) .

وهكذا ، ومن خلال العلاقة بين قابيل والغراب ، تبينت فاعلية هذه الشخصية المعاونة في صيرورة الحدث .

انه كذلك من خلال العلاقة التي قامت بين ذئب يوسف الموهوم ، ويعقوب ، وذاكرة اخوة يوسف ، أخذت الأحداث صيرورتها ، ذلك أن شخصية الذئب في قصة يوسف قد قامت بدور لايمكن نعته بأنه دور الذكرات القصصية أو المسرحية ، لأنّهُ كان الحلقة الوثيقة التي أفهمت يعقوب مسرائر أبنائه ، فلم يصدقهم بعد ذلك قط ، وكذ بهم ذلك التكذيب الذي أوحت به كلمة "عساً" الظرفية ، والذي

---

(١) ـ الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ـ م ٢ ـ ج ٦ ـ ص ٧٧

(٢) ـ سورة المائدة : ٣١

تبين له من خلال فحصه للقميص ، بأنه " لو أكله الذئب لخرق القميص "[١] . ثم إنّ الذئب هذا الذي لم يجترح أكل يوسف قط ، هو الذي ظل يسيطر على عقول إخوته ، من حيث إنه كان منقذ الخلاص من يوسف ، في إنتائهم أباهم بمآله ، على الرغم من أنهم متيقنون بأنه في غيابات الجب .

ويبدو أنهم ظنوا أن مآل يوسف الحقيقي كان في جوف الذئب دون غيابات الجب ، إذ أنهم سلكوا معه وهو في شخص الخازن ، ومعاون الملك ، على أنه في حكم الأحاديث والماضي إلى أن فاجأهم بمعرفة عنهم ، فتساءلوا : " أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ "[٢] . يقول تعالى ساردا هذا الدور الذي ألقي على الذئب المزعوم وعلق به : " وَجَاؤُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ، قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ، وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ، وَجَاؤُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ "[٣] .

---

(١) ـ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ٧ ـ ج ١٢ ـ ص ٩٢

(٢) ـ سورة يوسف : ٩٠

(٣) ـ سورة يوسف : ١٦ ، ١٧ ، ١٨

ولقد أظهر اللهعصا موسى على أنها فاعلة أيضا ، وفي الوقت نفسه مسخرة لأمره ولمشيئته ، وهي تقوم على فكرة التبدل والتغيير بمرتبة أعلى من مراتب أفعال السحرة بعصيهم ،والأفعال تلك هي التي كانت تميز ذلك العصر ، من حيث بلوغ السحر أعلى مرتبة من التقدم ، الأمر الذي جعل آية موسى تصدر من فرع المهارة ذاتها ، وهي مهارة السحر ومما يؤثر، أن " الساحر كان عندهم معناه العالم ، ولم يكن السحر عندهم ذمّاً "(١) ، قال تعالى: " قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ؟ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ، فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ "(٢) .

وهكذا ومن خلال ما ذكرناه ، يتضح لنا بأن الإخبار عن هذه الشخصيات المعاونة المختلفة الأجناس ،وبما قامت به من أفعال ،لايمكن إغفاله عند ذكر الشخصيات المحورية ، واستنطاق أبعادها .

.....

(١)- الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن - م ١١ ج ٢٥ - ص ٤٨

(١) - سورة الشعراء: ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥

• تقويم الفصل الثاني •

يتم تعريف الشخصية في السرد القصصي في القرآن باسمها في معظم المواطن ، مثلما نلحظ في حالة الأنبياء ، فالشخصية في السرد القصصي القرآني لها حدوثه فعلي ، يمتد بأثره الى الحاضر ، وهي تقوم بدور الهداية المستمرة ، ولذلك فهي معمورة في أغلب الأحيان ببعدها الجسمي ،مثلما نجد في شخص يوسف والنبي موسى،أوطالوت.

كما أنها مزودة بأساسها الاجتماعي ، فيمكن بأصوله تصنيفها فيما يمكن أن نجده الآن من الحقول الاجتماعية ، كالفقيرة،والمتوسطة، والفاحشة الثراء ، مع بون شاسع أحيانا ، كالذي نجده بين يوسف وامرأة العزيز ، أوموسى وفرعون .

ان الشخصية في السردالقصصي في القرآن كذلك ، مدعومة بخصيصة نفسية تؤهلها مع البعدين : الجسماني والاجتماعي لإدارة الصراع والتمادي فيه .

والخصيصة النفسية تيسر لنا أن ندرج الشخصيات بسهولة لوعثنا، في الأنماط النفسية المعهودة الآن في حقل علم النفس ،فالسمة الانبساطية التي ميزت نسوة المدينة في قصة يوسف ، على سبيل المثال ، لامرأة فيها .

ان الشخصية بمفهومها الفني ، قد تمتد الى الكائنات المعاونة التي وردت في القرآن وطورت القصص فيه .

الفصل الثالث

الصراع وأسلوب السرد القصصي في القرآن

- تمهيد
- الصراع في قصة نوح
- الصراع في قصة يوسف
- الصراع في قصة موسى
- تقويم الفصل الثالث

• الصراع والسرد القصصي في القرآن •

تمهيد •

ان الصراع قائم في الحياة ، وهو سنة استمرارها ، وهو في القصة أحد عناصرها الضرورية لدفع الحدث ، على أن الصراع له أشكال عدة (١) :

ا - الصراع الداخلي النفسي الذي ينشب داخل نفس المرء ، ويقوم أحيانا بين نازعين : نازع وضعي ، ونازع مصدره أساسي هو منه تكوين النفس البشرية ، كالصراع بين الحب والواجب .

ب - الصراع الفكري ، وهو قريب من الصراع النفسي ، ومشتق منه ، وقد يكون مترتبا عليه ، وقد يكون شبيها بالجدل (٢) بين طرف متفهم لأمرٍ مَا ، وآخر غير متفهم له ، وهذا اللون من الصراع يرتب للصراع المادي غالباً ، ويقود إليه ، ويعد وسادة له وركيزة ومعاداً .

---

(١) - الصراع هو المظهر المعنوي للمسرحية ، ويوحي بنوع من المباراة بين قوى متساوية تقريبا ، كما يوحي بالفعل وردود الفعل .
انظر : رونيه ويلك ، وأوستين وارين : نظرية الأدب - ترجمة : محيي الدين صبحي ، ومراجعة : د. حسام الخطيب - مطبعة خالد الطرابيشي ١٩٧٢ - ص ٢٨٢

(٢) - الجدل : قول يقصد به الى اقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقادا لمتجادلين ، ويستعمل في المذاهب والديانات وفي الحقوق والخصومات والتنصل والاعتذارات . ولمزيد من الاطلاع ، انظر :
قدامة بن جعفر : نقد النثر - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٢ - ص ١١٢

جـ ـ الصراع المادي الذي يقود اليه كل من لوني الصراع النفسي والفكري ، وفي هذا الصراع المادي يقدم كل طرف مالديه من قوة وعتاد وكيد وجلاد ، لينصر فكرته . ويتحتم أن تكون شخصية الخير والشرير على جانب متكافيء من القوة والسواء لدفع الحدث ، وان كان النصر لابد أن يكون في آخر المطاف معقودا للخير على الشر ، بعوامل من داخل البناء القصصي ذاته ، والقرآن الكريم يؤكد مبدأ نصر الخير وحاملي رسالته وتابعيهم في الدنيا والآخرة .

"إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ" (١) .

ونلاحظ أن الصراع في القصص القرآني ، في الأغلب الأعم ، يبدأ صراعا فكريّاً له غايات متشعبة ، ثم يتحول إلى صراع نفسي في نفوس الأفراد ، وقد يصحبه صراع مادي أو ينتهي هو إلى هذا الصنف من الصراع الحركي ، وقد يتوقف أحيانا عند لون من هذه الألوان ، أو يقتصر على لونين منها ، وذلك وفقا للغاية التي من أجلها سردت القصة ، وسنناقش ، إن شاء الله ، في هذا الفصل تلك الالوان من الصراع التي تتوافر في السرد القصصي القرآني ، وتميز ، بقدر

---

(١) ـ سورة غافر : ٥١

كبير، خصائص أسلوب السرد القصصي فيه ، متحولين الى نماذج منه في حركة الشخصيات ذاتها ، كما تتمثل في نوح وابنه ، ويوسف وخصومه، وموسى في مواجهة فرعون والملأ من قومه .

١ ـ قصة نوح وابنه

يمكن أن نقدر الصراع الوجيز الذي داربين الابن العاق وأبيه النبي، على أنه ،كما سبق أن بيّنا في الفصل الاول ، صراع فكري بين كافر ومؤمن ، انتقل الى صراع مادي صرف ، بأن تحول الخصم الى حركة مادية صرفة، أوأمد لهذه الحركة المادية الصرفة، بانهار خطاه لطريق جبل يعصمه من الماء " مثل عصام القربة الذي يشدبه رأسها فيمنع الماء أن يسيل منها " (١) ،ثم اعتصام النبي الأب الخير بالفلك الذي كان يبنيه ، ووصول المقدمات الأساسية (٢) الى ذرى ، هي فعل الهلاك بالطوفان للشخصية الكافرة ، والنجاة والحياة الجديدة لنوح ومن صحبه من رموز هذه الحياة ، " وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ

---

(١) ـ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ٧ ـ ج ١٢ ـ ص ٢٨

(٢) ـ المقدمة الأساسية : هي الفكرة الأساسية التي تحملها الشخصية وتنطلق بها من أجل تحقيقها ، وهي التي تحركها للفعل .

انظر: لاجوس اجري : فن كتابة المسرحية ـ ترجمة: دريني خشبة ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ ص ٤٥

فِي مَعْزِلٍ ، يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ، " (١) فهنا الصراع فكري ، قاد إلى صراع مادي ، وانتهى الى خاتمة خسر فيها الكافر ، وانتصر المؤمن ، وِفقَ المقدمات الاساسية ، أي الفكرة الأولى .

ب ـ قصة يوسف

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ينبني صراع يوسف بصفة أساسية على ماسبق أن قدمه السرد القرآني وناقشناه في المباحث السالفة ، من حيث الأماكن المحددة ، والأزمنة المسفرة ، والأبعاد الجسمية والاجتماعية والنفسية للرموز الخيرة والخصوم على السواء ، إذ أن الصراع يبدأ من تلك الفكرة المعطاة لنا من حيث وجود الحقد والغيرة في نفوس مستعدة للقتل ، قادرة على تنفيذه شارعة فيه ، " اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ " (٢) ؛

---

(١) سورة هود : ٤٢ ، ٤٣

(٢) ـ سورة يوسف : ٩ ، ١٠

فلقد اجتمع الإخوة "على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد وقلة الرأفة بالصغير المَرِع الذي لاذنب له ، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل" (١) ، في حين أن حامل القضية الخيرة ، سواء كان يعقوب أم يوسف غير قادر على شيء ، فيعقوب كبير السن مرقيك العظم ، أما يوسف فطفل صغير غرير ، قليل البأس هين الشكيمة ، ثم إنه مُلْقِي السَّلَمَ لإخوته ، فهم يكبرونه ، ثم إنه لم يكن متوجساً الشر منهم ، وإلاّ ماصحبهم ، بل استمسك بأبيه .

بعد ذلك تتصاعد الأحداث وفق الدعائم الجسمية والاجتماعية والنفسية ، التي سبق أن أوضحناها مختصة ببني اسرائيل ، لتحقيق الفعل دون عناد أونضال أومقاومة من يوسف الذي هو طفل طيّع ، ثم لانجد صراعاً نفسياً بتة ، في نفوس الاخوة وقد نفذوا جرمهم ، إذ لايدلنا القرآن على أثر من النفس اللوامة . ولقد سكت هذا النوع من الصراع حتى في مواجهة الأب الفاهم الذي اندلع في نفسه صراع شديد نتمثله في كونه متعلقا بفلذات كبده ، دون فلذة واحدة . هذا الصراع الذي كبت بعد ذلك ، وأوضحته

---

(١) ـ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ـ م ٤ ـ ص ١٢

مناجاته لنفسه وحواره مع أبنائه " فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ "(١) ، على أن العوامل النفسية والاجتماعية والجسمية تستثمر الصراع كرة تالية ، وقد هَبَّ يوسف في بيت العزيز بعد أن التقطته السيارة ، وباعته " بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ "(٢) ، وهنا دون صراع نفسي يذكر ، يحتمل أن يكون دار بينهم ، ذلك أن ملاحة يوسف في غيبة خصائص إخوته ، تتسلط على طرف آخر ، غير أن هذا الطرف يكون لها جد متقبل ، وفيها أشد راغب ، وهو طرف أنثوي .

ومن المعروف أن الطرف الأنثوي ينجذب لموضوع توقه ورغبته بكل الوسائل ، ولو بصورة الاضطهاد أو المعاكسة أو التجني أو القتل ، وهذا مما نلاحظه في الحياة بين الطرفين البشريين ، الذكر والأنثى ، فتراود امرأة العزيز يوسف عن نفسه ، وتعمل الخصائص النفسية ليوسف ، التي أصبحت نبوية ، عملها في هذا الصراع الناشب الجديد ، إذ يستعصم ، على حين تندفع المرأة المترفة المتوقة ، ويظل هذا الصراع المادي الى قرب الباب الذي كان يَحْتَوِشُ هذا

---

(١) ـ سورة يوسف : ١٨

(٢) ـ سورة يوسف : ٢٠

الصراع الذكري الأنثوي الذي انتهى بكبت العامل الغريزي عند النبي ، وهو كبت لا يعدله كبت آخر، وقد اختص به الأنبياء ، ورجل بشره الله بالجنة .

وهكذا امتنع يوسف عن فعل الفاحشة "بحسب ما أعطاه الله من النفس القدسية المطهرة النبوية "(١) ، يقول تعالى سارداً حلقات هذا الصراع : " وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ ، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوءَ وَٱلْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ، وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ "(٢) .

إن الكبت الذي تفكك وتردى بأردية الصبر بعد الدفاع القليل عن النفس، وعن السمعة والشرف ، والتيقن بظهور الحق ، ظل يصاحب يوسف حتى تحقق البرؤ بها ، غير أن عاملا جديداً يدخل في شخصية النبي يجعله نجماً يتخلى عن الكبت ، وعن الزهادة في الدفاع عن نفسه ، والرَّمْي بالحق في وجه الباطل ليمحقه ، ولو أساء لأكثر من لا يعنيهم

---

(١) ـ النيسابوري : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ـ المطبوع على هامش الجامع للطبري ـ م ٧ ـ ج ١٢ ـ ص ١٢٥

(٢) ـ سورة يوسف : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥

ظهور الحق ، ذلك عند ما سأل الفتى الذي ظن أنه سينجو من مقتلة فرعون أن يذكره عند ربه ، " وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ "(١) .

لقد اتخذ النبي قراره عندئذ ، وقد منح خاصة جديدة لم تكن له ، وهي خاصة تأويل الأحاديث ، فلما نا لايدعم بها سبيلاً للخروج لنشر الحق وعبادة الله الذي لاشريك له ، في قوم يعبدون " أربابا شتى متفرقين وآلهة لاتنفع ولا تضر(٢) " ، قال تعالى حاكياً قول يوسف : " يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ، أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ "(٣) ، الا أن الناجي ، في غمرة الفرح بالنجاة ، نسي " أن يذكر مولاه الملك بذلك "(٤) ، " فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ " بفرعون رؤ يا ذكرت الفتى بيوسف ، كي يعبرها للملك ، " وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ، أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ "(٥) .

ويمكن اعتبار هذه الرؤ يا من تدبير الله الذي هو بالغ أ مره ، حتى يصل بيوسف للرؤ يا التي أبعد ت بطريقة طفولته ظاهريّاً ،

---

(١) ـ سورة يوسف : ٤٢
(٢) ـ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ٧ ـ ج ١٢ ـ ص ١٣٠
(٣) ـ سورة يوسف : ٣٩ ، ٤٠
(٤) ـ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ـ م ٤ ـ ص ٢٩
(٥) ـ سورة يوسف : ٤٥

ذلك " أنه لما قرب الفرج ، رأى الملك رؤيا هالته ، وأشكل تعبيرها على قومه حتى عبرها يوسف "[1] ، لتكون سبب نجاة يوسف من السجن .

وتتواصل حلقات الصراع من السرد القصصي ذاته ، وإن تعددت الأدوار فيها الأبطال جدد، وحدثت أمور أخرى مبنية على صراع نكرات وشخوص ثانويين كانت قد أثبتت من قبل جمال يوسف ، والقدر الذي مُنِحَهُ من تأثير على النساء جميعا دون امرأة العزيز.

ومن الأبطال الجدد ، الملك الذي لانعرف له صراعاً ، فدوره ثانوي يسير ، والنسوة اللائي شهدن له بالبراءة . ثم نجد النبي بعد ذلك في تمام عَنَاصِرِهِ الجسمانية والاجتماعية والنفسية ،لاينقص خردلة، وهو يواجه الخصوم الأوائل ، ويضطرهم للإذعان لإرادته التي لاتنفصل عن الخير ولا تريم عنه ، بأن يقروا بخطئهم وأن يتنازلوا عوداً على بدء ، " قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ"[2] ، ثم حملهم قميصه إلى أبيه ، وأمرهم بأن يحضروا أبويه من البدو ليدخلا مصر ، ولتتحقق بأمر الله في آخر الصراع ، الرؤيا التي بدأت بها الأحداث ، وتَسَلَّتْ منها ،

---

(١) ـ الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ـ م ٤ ـ ج ١٢ ـ ص ٦٧

(٢) ـ سورة يوسف : ٩١

حين يرفع أبويه على العرش ، " وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً " (١).

ونلاحظ هنا أنَّ الصراع من النوع المتدرج ، وليس من اللون الواثب أو الساكن ، وهذا اللون المتدرج هو الذي ينسل من بعضه دون قفزات أو فجوات ، وهو الذي يصلح للقص الناجح ، حيث لا يصلح له الصراع الواثب الذي يعتمد على النقلات السريعة غير المبينة ، كما أن الساكن هو الذي لا تتحرك به الأحداث ولا تصل به إلى ذرى تذكر (٢).

والألوان تلك من الصراع ، هي التي أسهم فيها نقاد القص الوضعية ، ولا يمكن القول بأن الخالق قد صَوَّبَ إليها ، لأنه لديه سنن الأشياء وطبائعها وأسسها ، وهو خالق اللغة ، وخالق الخير والشر ، وإليه ترد الأمور .

---

(١) - سورة يوسف : ١٠٠

(٢) - للاطلاع على ألوان الصراع في المسرح أو الفن القصصي انظر :
لاجوس اجري : فن كتابة المسرحية - ص ٢٧١ وما يليها .

ج - قصة موسى

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

يدور الصراع في قصة موسى بطرق معقولة كذلك، صحيحة، معتمدة على ماسبق أن أفصح عنه السرد القصصي القرآني، من ذكر للزمان والمكان اللذين ستدور فيهما الأحداث، وكذا توطيد للأبعاد الجسمية والاجتماعية والنفسية للنبي الخير المرسل، والخصوم الأشرار، فإذا عددنا بداية صراع موسى مع فرعون وملئه وافدا من نبوءة أُوِّلَتْ لفرعون على هذا النحو: "إن مولودا يولد في بني اسرائيل يكون سبب ذهاب ملكك"(١)، ثم أمر فرعون، فراراً من عاقبة النبوءة، بتقتيل الذكران من بني اسرائيل واستحياء الإناث، فإن الصورة ستكون واضحة ومبررة لحلقات الصراع الشديدة التي دارت بين موسى وفرعون، ولم تختم إلا بنبذ جثة فرعون على شاطئ اليم:

"إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ"(٢)

---

(١) - الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن - م٥ - ج ٢٠ - ص ٢٦٣

(٢) - سورة القصص: ٤، ٥، ٦

إن الصراع في قصة موسى متد خله قوى أخرى غير مرئية ومرئية، فمن غير المرئية : الوحي الذي ألهم أم موسى أن تضعه في تابوت "ثم تقذف التابوت في النيل" (١) ، ومن المرئي : أمه التي نفذت ما أمر به الوحي ، وأخته التي أمرت بأن تقصه من قبل أمها ، "وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ" (٢) "وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" (٣) .

كما يدخل الصراع أفراد آخرون وموسى بحياته العادية في مصر قبل أن يفضي اليه مع أخيه هارون بعد ذلك بأمر إنذار فرعون وملئه . والذين أُدْخِلُوا في الصراع ، لِتَتِمَّ بهم حَلَقَاتُهُ ، وبها التخويف والإنذار ، أشخاص يفصحون عن العداوة المستحكمة التي كانت قائمة بين سلالة بني اسرائيل ممن أدخلوا مع يوسف ، والأقباط المصريين من أصحاب الأرض .

وبالتحديد ، رجل عبراني تشاجر مع رجل قبطي ، ثم الرجل نفسه يتشاجر مع قبطي آخر ، وقد أدى تدخل موسى بقوته الجسمية في نظير ضعف خصمه الجماني ، إلى حماسة موسى ابتداءً ثم تذمره

---

(١) ـ الصاوي : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ـ م ٣ ـ ص ٢٠٩

(٢) ـ سورة القصص : ٧

(٣) ـ سورة القصص : ١١

بعد ذلك ، وإرهافه السمع ، وطاعته الناصحين بالخروج من المدينة

" وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ، فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ، فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ، فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ، قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ ، إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ، وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ، فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ " (١)

على أن الراسب النفسي الذي استقر في نفس موسى ، التي سبق أن شرحناها من قبل ، وطّد هذه النفس لكي تكون مُتَقَبِّلاً حسناً لما سيتعدّل به الميزان من معاملة لبني جلدته ، واتضح ذلك في عدم

---

(١) ـ سورة القصص : من ١٥ الى ٢١

رفضه الرسالة ، عندما أُلْقِيَتْ أوامرها اليه ، وهو بجانب الطور ، بل في أن يسأل الله أن يَشُدَّ عَضُدَهُ بأخيه هارون ، وكان قد تزوج وفقاً لحاسته الانانية البشرية بفتاة هي ابنة شعيب ، كان قد استخدم قواه أو ماحباه الله إياه من مقدرة في سقي غنمها ، وهي مع أختها لاتقدران على السقي حتى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .

لقد كان الزواج دون صراع يذكر في نفس الفتاة التي عرفنا من ملامحها أنها طلبت من أبيها ، بأسلوب لا يخلو من حياء أنثوي ، لكنه لايخفي أيضاً حقها في أن تكون إلى جوار رجل أمين وقوي ، مادامت لم ترزق من أبيها أخاً على مايبدو .

ومما يؤثر أن الحياء " هو حالة تعتري الشخص ، تحمله على تجنب الرذائل "(١) ، وهذا الحياء أيضا كان المانع لأختها من مسارعتها في الاستئثار بموسى ، فأختها قبل كل شيء بنت نبيّ ، وأخت زوج لنبي ، " قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ، قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ، عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ "(٢) .

---

(١) الصاوي : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ـ م ٣ ـ ص ٢١٤

(٢) ـ سورة القصص : ٢٦ ، ٢٧

إنَّ الصراع المادي في هذه القصة يظهر على أشده بين موسى،وفرعون وملئه ، قائماً على مقدمة مفاجئة كانت حتمية حسب الأحداث المعطاة، والتناقض القائم بين مؤمنين ،لابد أن لديهم علماً من ديانة يعقوب ويوسف ، وآخرين يعبدون الملك ، هذه المقدمة هي أن يرسل فرعون مع موسى بني إسرائيل ، مما يثير نفس الخصم العالي الذي أسلفنا ركائزه الجسمية المعتادة ، والنفسية الطاغية،والاجتماعية الفاحشة ،فيذكر موسى بطفولته ومنشئه بقية زعزعة معنويات خصمه ، حتى يتغير مزاجه ويخرج عن حد الاعتدال ، ومن المعلوم أن " المزاج إذا زاد على حد الاعتدال في الحرارة كان معه العجلة وقلة التوقف وعدم الصبر وسرعة الضجر "(١). وموسى ، حسب ما بَيَّنَّا خصائصه النفسية من قبل ، أنفعاليٌّ يربكه الغضب ، إلى جانب أنه مُتَخَوَّفٌ إلاَّ بعون من الله ، لكنه كان مزوَّداً ببرهانين ماديين هما العصا واليد ، رَفَعَا معنوياته بمجرد أن استعملهما ، الأمر الذي جعل فرعون يحدد يوماً يَتِمُّ فيه النِّزال بين موسى وأتباع فرعون من سحرة ، وهو واثق من النصر لاعتقاده

---

(١) ـ يمكن الاستئناس بمدى هذا بناقد مثل :

قدامة بن جعفر : نقد النثر ـ ص ١٣٩

بأن موسى سيحاربه بسلاح العصر ، " قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ، فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سِوىً ، قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى "(١) ، لكن الصراع المادي الذي دار ، أتى بالنتيجة في غير فائدة الخصم ، فموسى الذي جرَّب سلاحه من قبلُ ، وقد تردد في نتائجه برهة ، لايسعه إلَّا أن يثق من مقدماته الأساسية ، وأن يستقبل النصر ، بل أن يرى كل علائمه أمامه ، من جود الحرة ، وعصيانهم الملك بما يشبه الانقلاب أو التحول ، مما جعل فرعون يواجه نفسه بُرْهَةً ، ويكاد يفتِّش عناصر ثباته ، إنْ يراجع السحرةَ : " أَآمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ "(٢) ، بل إنه ليُوعِدُهُمْ بالعقاب تلقاء تخليهم عن مواقعهم التي رسمها لهم في الصراع ، بصفتهم شخصيات معاونة للفاعل الشرير ؛ إذْ يستطرد فرعون كاشفاً نوع ذلك العقاب الذي كان أنكى عقاب في ذلك العصر ، قائلاً : " فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى "(٣) ، فكان فرعون بهذا

---

(١) ـ سورة طه : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩

(٢) ـ سورة طه : ٧١

(٣) ـ سورة طه : ٧١

الصنيع ، كما قال ابن عباس : " أول من فعل ذلك "(١) . إلاّ أنه يبدو أن هناك تحولا مبدئياً حدث في نفوس الموجّهة اليهم الرسالة، وبصيراً عاجلاً سريعاً بوصول الهداية إلى أهدافها ، من إعلان السحرة إيمانهم ، على الرغم من إفصاح فرعون عن ارادته الشريرة الموعدة بالويل ، " قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا، فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى "(٢).

ينتقل الصراع بعد ذلك إلى وجه آخر تحول فيه الفاعل الخير إلى صفحة جديدة فيها انصداع للخصم ،يتمثل في فئة التنوير بالباطل(٣) وقد آمنت ، ولم يبق إلاّ رأس الكفر، فرعون وملؤه ، وطائفة المتشيعين له ، على أن هؤلاء يكابدون من جنود الله الخفية المسخرة بين السماء والأرض ، إِذْ يُعَانُونَ ما أرسل الله عليهم من طُوفَانٍ وَجَرَادٍ وَقُمَّلٍ وَضَفَادِعَ وَدَمٍ ، لتوهن من عزمهم ، بوصفهم شخصيات شريرة ، تستخدم طرقا من النفاق والمراوغة والدهاء والمكر

---

(١) ـ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ـ م ٤ ـ ص ٥٢٦

(٢) ـ سورة طه : ٧٢ ، ٧٣

(٣) ـ أعني بهم السحرة ، وقد كانوا هم السلاح الفعلي لفرعون ، ولم يكن هامان .

بما يجعلنا نتمثل ذلك الصراع الفكري المستحر الذي يحاول الشخص الشرير به أن يكون على قدر من العناد والإصرار ، لا يقل عما يتمتع به خصمه ، وهو في مجرى الصراع وذروته ، وفي اتخاذه القرار ، إذ كان فرعون وملؤه ، كلما حلت بهم آية هرعوا إلى موسى " يسألونه أن يدعو لهم ربه ليكشف عنهم العذاب "(١) ، ولكنهم سرعان ما " ينقضون عهودهم التي عاهدوا ربهم وموسى ، ويقيمون على كفرهم وضلالهم "(٢) ، يقول تعالى ساردا وقائع هذا الصراع المادي الفكري : " وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ، وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ "(٣) .

وتتخذ العوامل الفوقية الالهية المسخرة لموسى مجراها وطريقها الوحيد المرسوم الذي كفله الله لعباده المرسلين ، من تحقيق النصر

---

(١) ـ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ١١ ـ ج ٢٥ ـ ص ٤٨

(٢) ـ نفسه : م٦ ـ ج ٩ ـ ص ٢٩

(٣) ـ سورة الاعراف : ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥

بما يجعلنا نتمثل ذلك الصراع الفكري المستمر الذي يحاول الخصم الشرير به أن يكون على قدر من العناد والإصرار ، لا يقل عما يتمتع به خصمه ، وهو في مجرى الصراع وذروته ، وفي اتخاذه القرار ؛ إذ كان فرعون وملؤه ، كلما حلت بهم آية هرعوا إلى موسى "يسألونه أن يدعو لهم ربه ليكشف عنهم العذاب"(١) ، ولكنهم سرعان ما "ينقضون عهودهم التي عاهدوا ربهم وموسى ، ويقيمون على كفرهم وضلالهم"(٢) ، يقول تعالى ساردا وقائع هذا الصراع المادي الفكري : "وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ، وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ"(٣).

وتتخذ العوامل الفوقية الالهية المسخرة لموسى مجراها وطريقها الوحيد المرسوم الذي كفله الله لعباده المرسلين ، من تحقيق النصر

---

(١) ـ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ـ م ١١ ـ ج ٢٥ ـ ص ٤٨

(٢) ـ نفسه : م٦ ـ ج ٩ ـ ص ٢٩

(٣) ـ سورة الاعراف : ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥

مهما طال الابتلاء ومهما عز الخصوم ، حين يُوحَى إلى موسى من قِبَلِ الله بأن يسري بعباده ليلا .

لقد حشد الخصم الشرير كل أجناده ليقضي على النبي ، حين حسبه نديداً مجرداً لا تعاضده قوى الغيب ، وتابعه الى ميدان للصراع مادي بحت ، لكن هذا الميدان المادي هو أيضا مَسِيلٌ من زهاء جند الله ، ذلك أنه " لما انتهى موسى ومن معه إلى البحر ، هاج البحر ، فصار يرمي بموج كالجبال ، فصار بنو اسرائيل يقولون : أين أمرت ؟ فرعون من خلفنا والبحر أمامنا ، وموسى يقول هاهنا ، فأوحى الله اليه أن اضرب بعصاك البحر ، فإذا الرجل واقف على فرسه ولم يبتل سَرجه ولا لبده "(١) .

ان القرآن الكريم نقل إلينا في صورة من الرد أمينة ، وقائع هذا الصراع المادي ، في قوله تعالى : " وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ، فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ، فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، كَذَلِكَ ، وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ، فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ، قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ، فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى

---

(١) ـ الصاوي : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ـ م ٣ ـ ص ١٧٣

أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَانْفَلَقَ ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ "(١) ، ويقول أيضا : " وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ "(٢).

لقد كُتِبَ العصير المحتوم للخصم الشرير ، وأفلتت مقدمات العناد لديه ، ولقد أقر بذلك بنفسه وهو يتجرع كأس الغرق ، بل اعترف بعقيدة عدوه السابق .

وهكذا نجد حلقات الصراع قويمة متينة من اللون نفسه الذي بُنِيَ عليه الصراع المسلسل المتدرج الذي صادفناه في قصة يوسف عليه السلام ، وإنْ كنا نجد أن القرآن يكتفي أحيانا عن ذكر أمور في ذلك الصراع، تقليلا من شأنها ، أولأنها مما يمكن أن يفطن اليه القارئ، أولأنها لاتدخل بصفة أساسية في إقامة المعنى الكبير و الدلالة ، ويعد ذكرها فضلة وتفصيلا ، على نقيض ما نجده ونشكو تراكمه

---

(١) ـ سورة الشعراء : من ٥٢ الى ٦٦

(٢) ـ سورة يونس : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ .

في الصراع القصصي الدارج البشري ، في القصص التجاري والبوليسي الهابط ، الذي يقول كل شيء ، ولايعتمد على الإيحاء والرمز ، وإن تعمد إخفاء النهاية عن القارئين، وجعلها تحت طائلة التكهنات والحدس المستمر، أومن وراء ستار ، وهذا مالم يجد البارد سبحانه، في القرآن له خطرا في كثير من الأحيان ، ذلك أن السرد القصصي القرآني ، لايفرد سورة ، مما وقع فيه ذكر الأحداث الكبرى التي عبرت بالكفار والأنبياء ، بخاتمة الصراع دون سورة أخرى ، بما يمكن أن نقول معه مثلاً انّه كان ينبغي أن يتخذ خطة أخرى غير تلك الخطة المرسومة من الإيماء الى الخاتمة والكشف عنها د ونإغماض، أوألغاز .

إن القرآن ليس سفراً قصصياً ، قبل كل شيء ، بل ان القصص فيه أحد جناحي الإقناع ، فالجناح الآخر هو القول الوعظي المباشر. وسنجد بعدذلك في تطور الفكر الاسلامي ونشأة العلوم العقلية، من ينبه إلى تعدد وسائل الإقناع، ومنها المنطق والفلسفة ؛ إذ نجد ابن رشد يرى وفق الآية الكريمة : " أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَاخَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ "(١) " نصاً على:

---

(١) ـ سورة الأعراف : ١٨٥

• تقويم الفصل الثالث •

إن الصراع بالقياس إلى الحدث يأخذ صورة وجدناها تتفق مع نوع الشخصية ومكوناتها الجسمية والاجتماعية والنفسية ، فهو يبدأ صراعا فكريا يجري في داخل شخصية كل من الخير والشرير ، ثم يتدرج إلى صراع مادي تلعب فيه الوسائل الكلامية المنطقية ووسائل القوة المادية دورا كفيلا بتطويره ، حيث تجعل من الكافر أحمق ، مندفعا ، طائشا ، يعتمد على الظاهر والظن ، والقوة المرئية فحسب ، منقادا وسحرة ، وعتاد ، ووعود باطلة ، كما وجدنا في قصة موسى ، فيما نجد النبي مثبتاً إلا بالإلهام إلهي ، وبتشجيع ووعد من باعثه ومبشره بالنصر .

وينطلق الصراع سجالا ، غير أن النصر في النهاية يكتب للخير على الشر ، لتصبح الشخصية الشريرة عبرة ، بما يتيح للسرد أن يحقق الغاية الأولى المبتغاة .

وتلعب الشخصيات النكرات دورا مؤيدا لحاملي الصراع في الجانبين ، بصورة لاتجعلها تطغى على أي منهما ، بل تدفع بهما الى الأمام .

• تقويـــــم الباب الأول •

لقد لاحظنا في الباب الأول أن أسلوب السرد القصصي في القرآن ، يمكن أن يتحقق بصفة مبدئية، نظرية ، عن طريق الحدث ، والسيطرة على خلق مبررات حدوثه بالصورة التي أرادها الله له ؛ من حيث أن للحدث شكلين : اعتياد وخرق للمألوف ، ونبوءة واضطرار النواميس لتحقيق النبوءة ، كذلك بإضاءة الحدث دون تجهيله ، بإضافة زمان حدوثه إليه ، ومكان الحدوث ، إنْ كانت الاضافة لفائدة الحدث والمتلقي ، الذي هو حجر الزاوية في بث الرسالة السماوية المنقولة بالقـــرآن •

ولكن الحدث بالصورة التي أسلفناها ، فهو لا يأتي قائما برأسه ، بل في وسط من فاعلين أسهموا فيه وَأَدَّوْهُ ، ولهذا لمسنا السرد القصصي يهتم بالشخصية ، إلى جانب اهتمامه بالحدث المطلق ، إضافة لرعايته للفكرة • ولقد وجدنا الشخصية فيه دائرية ليست مسطحة (١)

---

(١) ـ الشخصية الدائرية أو النامية : هي تلك التي تتكشف تدريجيا للمتلقي خلال القصة ، وتتطور وتنمو قليلا قليلا بمراعاها مع الأحداث أو المجتمع •

والشخصية المسطحة: هي تلك التي تمثل عاطفة واحدة أو صفة واحدة لا تتغير طوال القصة ، فلا تؤثر فيها الحوادث، ولا تأخذ منها شيئاً •

انظر: د• محمد يوسف نجم : فن القصة ـ ص ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، وانظـــر :

كما أنها مركوز فيها أبعادها الجسمية والاجتماعية والنفسية بطريقة أوبأخرى .

إن الشخصية في السرد القصصي القرآني تتوافر لها عناصر البطولة المحورية أوالخصم المحوري ، ومايعرف الآن كذلك بالبطل الشرير الذي لايقل عناداً وقوة عن البطل الخير، مع مايعاضد القطبين من شخوص ثانوية ، مركائنات مختلفة ،لايمكن إغفال دورها في البعث على التشويق، والتسلسل،وتراتب الاحداث ، والتطوير أوالتحول الذي هو حافز الانبياء بما يتخذ من أسلوب .

إننا لاحظنا كذلك أن السرد القصصي ينقل إلينا صراع الشخصيات في صورة الصراع المتدرج ، وهي الصورة المثلى في ألوان الصراع المختلفة، معتمداً على أفكار سابقة عن الشخصيات ، من حيث أبعادها الجسمية والاجتماعية والنفسية ومقدماتها المنطقية ، وأن هذا الصراع يتصاعد إلى ذرى ، وينم عن حلقات تدل حيناً على النضال السجال ، وحينا يتضخم فيها الشر بعوامل من الظاهر دون الباطن ، لكن المتلقي الذي يبطن الثقة في ظهور الحق على الباطل آخر الأمر ، يكون مأخوذاً بدافع المشاركة في دحر الباطل عن طريق القراءة والمتابعة والتمثل ،

= د٠ محمد غنيمي هلال : النقد الادبي الحديث ـ ص ص ٥٢٩، ٥٣٠

بعد أنْ أَزْهَقَ الرُّسُلُ والمسلمون الأوائلُ الباطلَ من قبل ، وفق الحقائق التاريخية .

إنّ المتلقي كذلك ، يكون مأخوذا بحافز التعلم ، واختزان العبرة والخبرة ، حتى لايتعرض لعثرة من العثرات التي استدرج اليها الطغاة والمتجبرون الذين أجاد القرآن تصويرهم بإشارات ونعوت مازالت دالة ومأخوذاً بها إلى اليوم .

وسنرى في باب اللغة ، إن شاء الله ، كيف يأخذ أسلوب السرد القصصي سداه وسوابه ، حين نحاول أن نراجع ماتلقيناه على أنه أفعال وأحداث ، وقد أخذ سمتا آخر ، هو سمت العلاقات اللغوية والنحوية ، بل الصوتية الحَرْفِيَّةِ ، التي هي أولا وقبل كل شيء الصورة التي تعرفنا بها إلى السرد القصصي القرآني ، سواء بالتلاوة أو السماع .

الباب الثاني

اللغة وأسلوب السرد القصصي في القرآن

تمهيد: في الرؤية العامة للأسلوب

تقتضي كل عملية تواصل جهازا أدنى يتكون من باث و متقبّل وناقل (١)، فأما الباث فهو المنتج الذي يقوم بعملية تركيب المفاهيم وصياغتها، والمتصورات المجردة المراد بثها، في نسق كلامي محسوس ينقل إلى المتلقي عبر القنوات الحسية، سمعية كانت أم بصرية، والمتقبل هو المستملك الذي يقوم بعملية التفكيك لأنظمة العلامات المبثوثة قصد فهم محتواها.

والناقل هو اللغة التي تواضع الباث والمتقبل على رصيدها المعجمي (٢)، وأصبح التفاهم بها أمرا ممكناً، سواء كان هذا التفاهم على مستوى مواضعة اللغات في مبدا النشأة، حيث وضع لكل مدلول دال واحد، أو على مستوى السياق وكسر المألوف، حيث انزياح الألفاظ عن معانيها الوضعية، وتلبسها بدلالات مجازية استوجبها السياق (٣).

---

(١) ـ د. عبد السلام المسدي: الاسلوبية والاسلوب ـ الدار العربية للكتاب ط ٢ = ١٩٨٢ ـ ص ٦٢

(٢) ـ نفسه: ص ٥٦

(٣) ـ د. عبد السلام المسدي: النقد والحداثة ـ دار الطليعة ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٣ ـ ص ٥٢

ولكي يتسنى للباث الإفصاح عن حسه والتعبير عن أفكاره ،فإنه يتحتم عليه القيام بتركيب أدواته اللغوية تركيباً معيَّناً يؤدي إلى تصوير الفكرة المنشودة والانفعال المقصود ، وإخراجهما في صورة لفظية معينة تعكس فكر الباث وشخصيته (١).

ولا شك أن ضم الكلمات بعضها إلى بعض ، والنطق ببعضها في إثر بعض من غير أن يكون فيما بينها تَعَلُّقٌ ، لايعطي معنى ، لأن المعنى لا يحصل إلاَّ من مُلاَءَمَةِ معنى الكلمة لمعنى التي تليها ، "حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك" (٢) ، أي أن مواقع الكلمات في التركيب يكون وفقا لترتيب المعاني في النفس ؛ بحيث " لايتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونَظْماً ، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك ، فإذا تَمَّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها " (٣).

---

(١) د. عبد السلام المسدي : الاسلوبية والاسلوب ـ ص ٨٨

(٢) ـ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ـ تحقيق:عبد المنعم خفاجي مطبعة الفجالة الجديدة ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٦٩ ـ ص ٩٣

(٣) ـ نفسه : ص ٩٦

إن ذلك يعني أن الكلمات تترتب في النطق أوعلى الورق ، إذا كانت المعاني مرتبة في النفس ترتيبا معينا حتى تحصل الصورة المبتغاة ، وهذا ماذهب اليه " بالي " ، وهوأحد النقاد الغربيين ، حينما أراد تمييز الأسلوب عن الأسلوبية ، إذ " حصر مدلول الأسلوب في تفجر الطاقات التعبيرية الكامنة في صميم اللغة ، بخروجها من عالمها الافتراضي ، إلى حيز الموجود اللغوي ، فالأسلوب حسب تصور "بالي" هو الاستعمال ذاته ، فكأن اللغة مجموعة عجنات معزولة ، والأسلوب هو إدخال بعضها في تفاعل مع البعض الآخر ، كما في مختبر كيميائي "(١) . ومن هذا التفاعل ، وتقاطع الدوال بالمدلولات ، ومن مجموع علائق بعضها ببعض يتكون الأسلوب ، وتتكون البنية النوعية للنص(٢)

إن الاسلوب إذن ، يحدد من خلال روابط الألفاظ بالأشياء ، وكذا من خلال علاقة الألفاظ فيما بينها ، ثم من خلال علاقة الالفاظ بالجهاز اللغوي الذي تتنزل فيه(٣) .

والاسلوب من هذا المنظور هوحصيلة تفاعل كل هذه العلائق مجتمعة

---

(١) ـ د. عبد السلام المسدي : الاسلوبية والاسلوب ـ ص ٨٩

(٢) ـ نفسه : ص ٩٠

(٣) ـ نفسه : ص ٩١

وليس ملكاً عينياً لجزء من أجزائها . والمبدع هو الذي ينشئ هذه العلائق بين الأجزاء المكونة للنص الأدبي ، وهو الذي يؤلف بينها ويشيع النظام بين مفاصلها ، تبعاً لنظام آخر معنوي، انتظم وتألق في نفسه ، ذلك أن " الأسلوب معان مرتبة، قبل أن تكون ألفاظاً منسقة وهو يتكون في العقل قبل أن يجري به اللسان أو يجري به القلم "(١) ، إذن فالمبدع لا يستطيع الإفصاح عن حسه أو عن تأويله ، إلا إذا أتيحت له أدوات لفظية ملائمة تحمل الشحنة المعنوية التي أراد بثها وإخراجها للوجود .

ولما كان الباث ، مهما كان انتماؤه ، الاجتماعي أو العلمي وعيه وإدراكه ، إنما يرغب في توصيل محتوى رسالته إلى المتلقي ، فإنه يتحتم عليه أن يكيف صيغة خطابه حسب أصناف الذين يخاطبهم .

ومن هذا المنطلق يرى بعض علماء الأسلوب : بأن جوهر الأسلوب إنما يكمن فيما يضفيه الباث على الفِكَر، بما يحقق كل التأثير الذي صيغت من أجله هذه الفكر ، أي أنه يرفق الفكرة بسهام تَخِزُ المتقبل ، فتستفزه وتحرك نوازعه وردود فعله(٢) .

---

(١) ـ أحمد الشايب : الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية مطبعة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط ٦ ـ ١٩٦٦ ـ ص ٤٠

(٢) ـ د. عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب ـ ص ٨٢

وارتكازا على هذه المعطيات،يعرف أحد الكتاب اللغة والأسلوب، فيقول : " اللغة بناء مفروض على الأديب من الخارج ، والأسلوب مجموعة من الإمكانيات تحققها اللغة ، ويستغل أكبر قدر ممكن منها الكاتب الناجح أو صانع الجمال الماهر الذي لايهمه تأدية المعنى وحسب ، بل يبغي إيصال المعنى بأوضح السبل وأحسنها وأجملها ، وإذا لم يتحقق هذا الامر فشل الكاتب وانعدم معه الأسلوب"(١).

وهكذا ينضاف إلى معيار تحديد الأسلوب مقياس آخر يتمثل في قياس قوة التأثير والضغط،والقوة المقصودة هي تلك المتسلطة على حاسية المتلقي ، وقابليته المدركة .

ووفقا لهذا المعطى، فإن ماهية الأسلوب تتحدد بكونه كائناً موجوداً ماثعاً ومعلقاً لايتنزل ولا يتجسد إلاَّ بإصابة النص مرماه في نفس المتلقي(٢).

والمتلقي أوالقارئ للعمل الأسلوبي ليس له من مأرب سوى فحص تلك الصورة اللفظية التي أبلغها إياه الباث ، وتفكيك عناصرها المكونة لجهاز الإبلاغ ، حتى يتمكن من فهم محتواها ، ويقترب من

---

(١)- ريمون طحان : الألسنية العربية(٢) - دار الكتاب اللبناني،بيروت، ط ٢ - ١٩٨١ - ص ١١٦ ، ١١٧

(٢) - د. عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب- ص ٨٤

إدراكِ ما يحدث بين عناصرها عند التفاعل، وما ينقطع عند الانفصال ، إن كان قارئاً أدبياً ، وذلك بطريق العزل والضم حتى تتجلى المفارقات والمقاربات

وهكذا يمكننا القول ،بأن المستقبل هو محور العملية الاتصالية ، بل هو لب القصيدة في أطرافها ، فإذا علم الباث حالة المستقبل التعليمية والاقتصادية ، والاجتماعية ، والنفسية ، وغيرها ، فانه يتمكن عند ذلك من وضع مخططاته التوصيلية وفق هذه المعطيات ،فيختار لها الوسيلة أوالأسلوب الذي يحقق به التأثير المقصود من عملية الاتصال،ويبحث كذلك في تعديل الأسلوب لتحقيق هذا المبتغى .

والقرآن الكريم الذي لايرقى إلى أسلوبه أسلوب لإنس أولجن ، والذي كان أول أهدافه تحقيق الاتصال لتبليغ العقيدة الصحيحة للبشر،أَجْدَرُ بأن يكون مصدراً وَأُنموذجاً للتوصيل بأسلوب اللغة ، فخالقه هو ملهم الأساليب .

وسنحاول ، إن شاء الله ، أن نجلي طبيعة هذا الاسلوب من خلال المباحث التالية:

١ ـ الايجاز والبسط في أسلوب السرد القصصي في القرآن

٢ ـ التناسب بين الجمل وأسلوب السرد القصصي في القرآن

٣ـ ظاهرة التأكيد وأسلوب السرد القصصي في القرآن

٤ـ التوافق الصوتي وأسلوب السرد القصصي في القرآن

.....

الفصل الأول

الإيجاز والبسط في أسلوب السرد القصصي في القرآن

تقديم:

- الإيجاز وأسلوب السرد القصصي في القرآن.
- البسط وأسلوب السرد القصصي في القرآن.
- تقويم الفصل

تـــقـــديم
xxxxxxxxxxx

إن لكل عاطفة درجتها من التأني أو الإسراع ، ولكل فكرة مداها من الضيق والاتساع، ولكل صورة طبيعتها من الظهور والضمور ، ومن القوة والضعف . والبيان التام هو الذي يوافق هذه الحالات ، ويعبر عنها بما يلائمها ، وتبدو ملاءمته لها في تقطيعه إلى فقرات وفواصل تقصر وتطول وفقا لحالات النفس والفكر ، فقد تكون عواطف النفس جياشة بالألم ، أو مضطرمة باللذة ، وحينئذ تكون الفقر القصيرة أنسب للتعبير عنها ، وقد تكون المعاني رزينة بطبيعة موضوعها لتوخيها الإقناع والإفادة ، أو الشرح والتعليل فتقتضي الأسلوب المرسل المفصل .(١)

وهذا التفاعل العضوي القائم في عملية الخطاب، بين الموضوع والحالة النفسية والفكرية لصاحبه ، لاتنسينا الضلع الثالث في العملية الإبلاغية ؛ ذلك أن كل عملية إبلاغ لاتتم إلا إذا اكتملت فيها أعضاء المثلث المكون للجهاز الابلاغي :

الباث ، المتلقي ، الرسالة .

والباث مهما كان انتماؤه الاجتماعي ، وأيا كان مستوى وعيه وإدراكه، يرغب في حمل المتلقي على فهم رسالته ، وفي الوقت نفسه على

---

(١) ـ د. بدوي طبانة: قضايا النقد الادبي ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٤ ـ ص ١٤٨

جعله ينفعل لأثره ويستسلم له ،ولذلك فإنه يسعى إلى تكييف رسالته حسب أصناف الذين يخاطبهم .(١)

ويستفاد من هذا ،أن بناء الأسلوب سواء على مستوى الجملة ، أوالعبارة،أوالفقرة ، يخضع لطبيعة هذه العناصر الثلاث المكونة للجهاز الإبلاغي ، فيصاغ وفقا لحالاتها .

وقد عرفناطبيعة بنائه ليوافق طبيعة الباث ، والرسالة ، فماذا تكون طبيعته ليوافق طبيعة المتلقي وحالاته ؟

مما لاشك فيه،أن طبائع المتلقين تختلف ، ودرجة إدراكهم تتفاوت، فقد يكون المتلقي فطناً يفهم بالإشارة واللمحة، وقد يكون غبيا يستدعي افهامه حديثا مطولا ومكرراً ، كما قد يكون عنيدا يتطلب إقناعه جملا كثيرة واضحة لاتحتمل تأويلاً .

وكان الخطيب من العرب يَفْتَنُّ في كلامه ويلون في أساليبه ، " فيختصر تارة إرادة التخفيف ، ويطيل تارة إرادة الإفهام ، ويكرر تارة إرادة التوكيد ، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين ، ويشير إلى الشيء ويكني

---

(١) ـ ابوالحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة ـ دار الغرب الاسلامي ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨١ ص ص ٣٤٤ ، ٣٤٥

عن الشيء . وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال ، وقدر الحفل ، وكثرة الحشد ، وجلالة المقام "(١).

١- الإيجاز وأسلوب السرد القصصي في القرآن

لقد لاحظنا فيما يتصل بالحدث أن السرد القصصي يوجز في مواطن ويسهب في مواطن أخرى ، ولما كان الايجاز والاسهاب عملا من وظائف اللغة ، كما أنه يدخل في حقلها وطبيعتها ، إلى جانب ملكات المتلقين الذين قد يكونون من أهلها ، أو من التابعين لهم ، فإن المسألة تحتاج لإيضاح ، يقول أبو هلال العسكري : " قد رأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي ، وإذا خاطب بني اسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً ، وقلما نجد قصة لبني اسرائيل في القرآن إلاّ مطولة مشروحة ، ومكررة في مواضع معادة ، لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم "(٢) ، وذلك ، فيما نعتقد ، لكونهم لا لياقة لهم كالعرب ، وليسوا في حكمهم من البيان .

وفي هذا القول إشارة إلى أن العرب كانوا يستحسنون الكلام الموجز

---

(١) ـ ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : ص ١٣

(٢) ـ ابوهلال العسكري : الصناعتين ـ مطبعة محمود بك ـ الاستانة ـ ١٣١٩ ـ ص ١٤٤

ويفضلونه على غيره من أنواع الأساليب، حتى أنهم جعلوا البلاغة معادلة للإيجاز؛ إذ نجد خطيب العرب، أكثم بن صيفي يقول: "البلاغة الايجاز"(١).

ولقد اختصروا كلامهم وأخرجوه في صورة مكثفة، مبرقة، وموحية، تتعاقب على الذهن بسرعة كومضات البرق. وهذا اللون من الكلام يتطلب من المتلقي أن يكون سريع البديهة، لبيباً بالاشارة يفهم(٢).

وكانت قريش أشد العرب فهما وذكاء، وأحدهم منطقاً وكلاماً، ومقامهم وهم كذلك، يقتضي مقالاً مناسباً، واللغة الجديرة بهذا المقام هي لغة الإيحاء، ولغة التكثيف والإبراق.

والقرآن الكريم الذي نزل معجزاً لهم، راعى فيهم هذه الخاصية، فجاء أسلوب ما نزل بمكة متمشياً مع العادة الأسلوبية المتفشية فيهم، فتفوق عليهم؛ إذ يقول الرسول (ص): "أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ جَوَامِعَ ٱلْكَلِمِ(٣) وَخَوَاتِيمَهُ، وَٱخْتُصِرَ لِي ٱخْتِصَاراً"(٤).

---

(١)- السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة - دار الفكر بيروت - ١٩٧٨ - ص ٢٢٤

(٢)- قال أبو العباس: من كلام العرب الاختصار المفهم، والاطناب المفخم، وقد يقع الإيماء الى الشيء فيغني ذوي الالباب عن كشفه. انظر: المبرد: الكامل ج١ - دار الفكر - ص ٢٢

(٣) - جوامع الكلم: هي هذا النوع من الايجاز الذي يكتفي فيه بألفاظ قليلة، لكن سليمة من كل حذف لبلوغ أشمل المعاني وأبعدها تصورا في

ولكي نتبين ظاهرة الإيجاز في أسلوب السرد القصصي في القرآن ، لابد أن نرتكن الى أمثلة .

ومثالنا الأول من سورة الفجر ، حيث عرضت أحداث قصص ثلاث في آيات قلائل ، لاتتعدى الثمانية(١) ، تشترك جميعا في المقدمة ، " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ " ،وتستقل كل من القصص الثلاث بعدد قليل من الجمل والكلمات فلقد عبر عن قصة " عاد" بجملتين تتركبان من عشر كلمات ، " بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ " ، كما عبر عن قصة ثمود بجملة واحدة تتركب من خمس كلمات ، " وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِالْوَادِ " . وفي هذا السياق الوجيز ، عبر عن قصة فرعون المتلاحقة الحلقات التي سبق أن لمسنا طولها وملحميتها ، بجملة واحدة تتكون من ثلاث كلمات ، " وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ " ، على أن هذه الجملة الوجيزة دالة في ذاتها ، بل انها تثير كل حلقات السيرة الطويلة في المتلقي ، لاسيما بما تحمله الإضافة المعرفية الجديدة المتمثلة في " ذِي ٱلْأَوْتَادِ " .

= في الخواطر والأذهان ، بحيث لايبقى لأحد بعد إطلاقها الأمل في احراز أقل منها لفظا ، ولا أكثر منها معنى . انظر :

محمد الصغير بناني : النظريات اللسانية عند الجاحظ ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر ـ ١٩٨٣ ـ ص ٢٦٧

(٢) ـ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ـ م ٤ ـ ص ٧

(١) ـ سورة الفجر : من الآية ٦ الى الآية ١٣

ومن الواضح أن القرآن أعطانا مع السرد "صورة حضرية متمكنة من المادة"(١)، فعاد أنشأت إرم ذات العماد، وثمود "قطعوا الصخر بالواد(٢) لكي يعملوا منه البيوت والتماثيل"، وفرعون عمل الأنصاب.

وفي هذا إشارة للتفوق الحضاري الذي أحرزته هاته الأقوام فأطغاها.

إن "من الإيجاز ما يأتي بالإشارة والإيحاء" وهذا معدود في أنواع البلاغة "لأن نفس السامع تتسع في الظن والحساب"(٣)؛ ذلك أن عدم التفصيل يدعو العقل الى النظر والتفكير في ما عرض عليه من أمر بوجه عام، فيتحول بذلك المتلقي من طرف سلبي متلق فقط، إلى طرف إيجابي يؤكد حضوره بكثافة في جو الخطاب المبثوث اليه.

ومن هذا اللون الذي اقتصر فيه السرد على عرض الأحداث بصورة موجزة، ما نقف عليه في سورة الحاقة، حيث وردت فيها "مجموعة من أخبار التاريخ وقصص الماضي، معروضة عرضاً سريعاً قوياً موجزاً"(٤).

---

(١) ـ الشيخ محمد متولي الشعراوي: تفسير سورة الفجر ـ مكتبة القرآن ـ ١٩٧٩ ـ ص ١٠٠

(٢) ـ نفسه: ص ١٠٠

(٣) ـ الكلاعي، الملقب: بذي الوزارتين ـ احكام صنعة الكلام ـ تحقيق: محمد رضوان الداية ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٦٦ ـ ص ٩٣

(٤) ـ انظر القصص في سورة الحاقة، من الآية ٤ الى الآية ١١.

(٥) ـ محمد المبارك: دراسة أدبية لنصوص من القرآن ـ دار الفكر بيروت ـ ص ٣٠

لقد استهل السرد هذا العرض بذكر قصة عاد ،فأتبعها بقصة ثمود ، فقصة لوط ، فقصة فرعون ، فقصة نوح ، وأشير في كل منها إلى صورة الهلاك التي أصابت القوم ، جزاء عصيانهم رسل الله ، فتم خمس قصص عرضت في ثمان آيات مكثفة المحتوى ، مقتصد فيها بحكمة ، على أن كل لفظة منها تعد رمزاً دلالياً وعبارةً تشير كل تفاصيل الحشد اللفظي ، على افتراض أننا جعلناه معبرا بديلا عن القول الموجز .

لقد تمكنت الآيات القلائل من تحقيق وظيفتين اثنتين في آن واحد ، حيث أدت ما يؤديه الكلام عادة ، وهو إبلاغ الرسالة الدلالية ، وفي الوقت ذاته سلطت تأثيراً ضاغطاً على المتلقي ، تَمَثَّلَ في تحذير المشركين من أن يصيبهم ما أصاب الأمم التي احتملها السرد الوجيز .

ولقد نتج هذا التأثير ، فيما نعتقد ، من عاملين : أولهما ، اختيار الإيجاز في ذاته وسيلة للقص ، بهدف التحذير والإنذار ، وثانى العاملين ، انتقاء العناصر المسرودة ذاتها التي قد تكون ، كما سبق أن أشرنا ، جاهزة ومادة ، غير أنها الجاهزة والمادة من اللون الذي لم يُعْنَ فتيلاً أمام نكال الله وعقابه ، وذلك " لتحفظها كل أذن ، فتكون عظة لمن يأتي بعد "(١)

---

(١) ـ الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ـ م ٦ ـ ج ٢٩ ـ ص ٤٣

ان الخصائص الاسلوبية التي اتسمت بها المجموعة القصصية في سورة الفجر، وفي سورة الحاقة ، يمكن أن نسجلها على قصة الفيل (١) ؛ فلقد أوجز السرد أحداث القصة في خمس آيات ، حيث بدأها الخالق بسؤال يثير الاهتمام ، ويقرر خبراً كان معلوماً عند القوم ، هو ماحدث لجيش أبرهة ، وكان النبي (ص) " يعلم علما كالمشاهد المرئي ، لتواتر ، وقرب عهده به " (٢) ، ولذا لم يجئ في السرد مجيء الخبر المفصل ، حتى لايكون حديثاً معاداً ، فلقد وصف الجيش والعتاد الحربي في كلمتين فقط ، هما : " أصحاب الفيل " ، وفيهما من البلاغة والايجاز مايجل عن الوصف، ثم بعد ذلك جاء السرد بنهاية الاحداث في البداية،مع الابقاء على مسببات هذه النهاية ، حتى تبقى الاثارة متمرة ومتزايدة،"فعل الفعل المذكور المتعجب منه بقوله (٣): " أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ " .

لقد عبر عن النهاية بثلاث كلمات هي في غاية الوضوح والإبانة، إذ يتعرف المتلقي فيها على أن أصحاب الفيل قد ارتد إليهم كيدهم نهزموا ، وتسرد إثر هذه الجملة تفاصيل المعجزة الالهية التي

---

(١) ـ سورة الفيل :من الآية ١ الى الآية ٥

(٢) ـ النيسابوري : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ـ المطبوع على هامش الطبري ـ م ١٢ ـ ج ٣٠ ـ ص ١٦٥

(٣) ـ نفسه : ص ١٦٦

كانت وراء انهزام جيش أبرهة في ثلاث آيات قصيرة ومركزة، " وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ "(١)

وهكذا فقد اختزل السرد أحداث هذه القصة في ثلاث وعشرين كلمة، وحولها إلى " برقية " عليها أن تُفْصِحَ عن الكثير بأقل ما يمكن من الرموز الدلالية ؛ فتم بذلك التوافق والتلاؤم بين الأسلوب والموضوع المعالج ؛ حيث عبر عن موضوع معروف بأسلوب موجز مختصر مثير ومنبه .

ولقد ساهم في روعة هذا الاسلوب ما شُحِنت به كلماته من توقيع موسيقي موجز، إلى جانب ما احتوته من كثافة في الدلالة .

ونجد هذه الخصائص الأسلوبية كذلك، في القصص المذكورة في سورة القمر ، وسورة الذاريات، وسورة الفرقان .

ان السرد في بعض الأحايين يكتفي بذكر ما له علاقة بغرض العرض وقصده ، فيوجز فيما يعرض ، ويعدل عن التفصيل بقصد تركيز الذهن على قضية واحدة دون تمتيته بين أنواع منها .

ومن اللون الذي ذكرناه ، تلك الصورة التي جاءت عليها قصة موسى عليه السلام في سورة الفرقان ، إذ يقول تعالى : " وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ،

---

(١) ـ سورة الفيل : ٣، ٤، ٥

وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ، فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (١) " ، فلقد اكتفى السرد في هذه القصة بذكر " حاشيتي القصة ، أولها وآخرها ، لأنهما المقصود من القصة بطولها ، أعني الزام الحجة واستحقاق التدمير بتكذيبهم (٢) " ، وكان يمكن أن تأتي على هذه الصورة ، فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فذهبا اليهم ، فكذبوهما فدمرناهم تدميراً ، ولكن الغرض من العرض هو الذي أوجب حذف جواب الأمر في هذه القصة .

ان توفير العناية لمعنى بعينه أحيانا هو الذي يوجب حذف ما حقه أن يثبت ، حتى يتجه الاهتمام الى الشيء المذكور ، حيث يكون " ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الفائدة أزيد للافادة ، وتجدك أنطق ما تكون اذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تُبِنْ (٣) " ، مثال ذلك ما جاء في حادثة السقي لبنتي شعيب من قبل موسى عليه السلام ، إذ قال تعالى سارداً وقائعها : " وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ، وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ

---

(١) ـ سورة الفرقان : ٣٥ ، ٣٦

(٢) ـ ابن الأثير ضياء الدين : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ج ٢ تحقيق : د. أحمد الحوفي ، د. بدوي طبانة ـ منشورات دار الرفاعي ـ الرياض ط ٢ ـ ١٩٨٣ ـ ص ٣٣٨

(٣) ـ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ـ ص ١٧٠

تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ "(١).

لقد حذف المفعول من أربعة مواضع ، كانت الأفعال فيها متعدية وتحتاج إلى مفاعيل ، فالأفعال الأربعة :(يسقون ، تذودان ، نسقي ، سقى) حذفت منها هذه المفاعيل ، وكان الأصل أن تأتي العبارة على هذه الصورة ، " وَجَدَ عليه أُمَّةً من الناس يسقون أغنامهم أومواعيهم ، وامرأتين تذودان غنمهما ، وقالتا لانسقي غنمنا ، فسقى لهما غنمهما "(٢).

ان المفاعيل قد حذفت هنا لتركيز الاهتمام على الفعل ، بحيث يدرك المتلقي أن الناس كانوا يسقون ، وأنّ الإمرأتين كانتا تذودان ، ولم تستطيعا القيام بفعل السقي ، الأمر الذي دفع موسى عليه السلام ، إلى القيام بهذا الفعل دون ذكر الحيوانات المسقية ،لأن ذلك خارج عن الهدف ، ولم تذكر المفاعيل التي لم تكن مجال الاهتمام ، لأنه لاداعي إلى معرفة ماهية الماشية التي تسقى ،أوالتي تذاد ، وإنما كان الغرض هو معرفة الفعل ،وكيف تم .

لقد كان بذلك حذف مفعول كل فعل من الروعة والحسن بمكان ، " لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة ، وأن الغرض لايصح إلا على تركه "(٣).

---

(١)- سورة القصص : ٢٣ ، ٢٤

(٢) - انظر: عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز - ص ١٨٢

(٣) - نفسه : ص ١٨٢

وبهذه الكيفية المعجزة في السرد ، يرغم المتلقي على التفكير فيما وراء الألفاظ ، حتى يندمج مع أحداث القصة ، ويعيش معها بنبض إحساسه وكامل تفكيره .

ومثال الإيجاز بالحذف لغرض بلاغي ، ما نقف عليه في قوله تعالى قائلاً : أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ، يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ "(١) ، فقد اقتطع السرد أكثر من جملة ، واستغنى عنها ، لما في السياق من دلالة على المعنى المحذوف ، بحيث ان المتلقي حين يقرأ قوله تعالى :" يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ... " ينصرف إلى ذهنه مباشرة أن الذي نجا من السجينين قد سُمِحَ له باستفتاء يوسف وهو معه الآن يستفتيه ، وحذفت هذه اللحظة من السرد لعدم فاعليتها في الحدث ومساره .

ومن الحذف في السرد أيضا ما نستبطن من قوله تعالى : " فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ "(٢) ، فقد حذفت الجملة المقدرة (فضربه بعصاه) ، وذلك لسبب مذكور هو قوله : (فانفلق) ، إِذْ يَتَنَبَّهُ الفكر إلى أن الضرب قد تمَّ من قبل موسى عليه السلام ، وإلا ما كان لينفلق ، وكان من عادة "العرب إنما تحذف من الكلام ما يدل عليه ما يظهر "(٣) .

---

(١) ـ سورة يوسف : ٤٥ ، ٤٦

(٢) ـ سورة الشعراء : ٦٣

(٣) ـ ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ـ ص ٢١٩

وهكذا فقد صور السرد الظرف الحرج الذي تحسب فيه كل لحظة على موسى وعلى من معه ، وأثبت في هذا التركيب سرعة استجابة البحر ، فما كان للبحر أن يعصى أوْأَنْ يكون عقبة ، وما كان لفرعون نفسه أن يشكل هذه العقبة ، ولكن الله يملي لمن يشاء ، وكأن السرد يريد أن يغرق المتلقي بما يعنيه من أمر العبرة دون أن يوجهه الى مظاهر الطبيعة التي تطيع الله طوعاً أوكرهاً .

ومن الإيجاز قوله تعالى : " فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا "(١) ، فلقد عقب الانفجار الضرب بدون مهلة ، لينقذ بني اسرائيل من العطش الذي حاق بهم ؛ إذ عبر التركيب اللغوي بهذه الصورة عن الفعل تعبيراً دقيقاً يتوافق مع الموقف الخطير الذي لايحتمل تأخير فعل السقي والارواء وإنهاب العطش .

إن الاختزال في أساليب القصة هو نحو من البناء السردي الذي يفجر الامتاع الذهني عند المتلقي، بنحو بالغ المدى ، إنه يجعل المتلقي مسهماً في الكشف الفني ، مفجراً تنقلاته الفكرية هنا وهناك ، مثيراً الذهن بربط شذرات الأحداث ، واللين لتداعياتها .

---

(١) ـ سورة البقرة : ٦٠

٢ـ البسط وأسلوب السرد القصصي في القرآن

وقفنا على اللون الأول الذي يعد من مميزات أسلوب السرد القصصي في القرآن ، وهو الايجاز ، وسنقف على لون آخر من الأساليب ، يتخذ البسط والشرح والاعادة منهجاً .

ونبدأ بملخص نجتزئه من قول بلاغي عربي ، مما يمكن أن يوضح مواطن البسط والاسهاب ، اذ نجده يقول : هي " ما يكتب به إلى عامة ، وتقرع به آذان جماعة ، كالصلح بين العشائر ، والتحضيض على الحرب ، والتحذير من المعصية ، والترغيب في الطاعة ، وغير ذلك مما له بال ، فحينئذ يجب على الكاتب أن يبدئ ويعيد ، ويحذر بالتكرير ، وينذر بالترديد ، ولتكون رقى مواعظه أولج في المسامع وحجته أظهر على مختلف الأفهام والطبائع "[1] .

ويظهر هذا اللون من الاسلوب في القصص التي توضح العقائد الجديدة بحيث تحاول أن تضع الحقائق الواضحة المتميزة أمام كل ذي عقل وإحساس ، " ليستفيق من غشيته وليحس احساسا بما هو فيه من ضلال "[2] ،

---

(١) ـ الكلاعي : احكام صنعة الكلام ـ ص ٩٠

(٢) ـ د. محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم ـ ص ٢٠٤

فيكون ذلك دافعاً للعدول عن الأسلوب القصير إلى الأسلوب المرسل المشحون بالبرهان والدليل ، حتى يأخذ الطرف الثاني بالحجة والدليل .

ولتوضيح ماسلف ، نأخذ مثلا محاورة موسى لفرعون حول الألوهية ؛ فلقد وردت هذه المحاورة في سورة الشعراء ، في قوله تعالى : " قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ؟ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ " (١)

إن في جواب موسى حين قال : " رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا " أستيفاءً لكل ماخلف الله في هذا الكون ، ودلالةً على عظمة الله ، ولكن لما كان موقف فرعون ومن معه موقف المتعنت المعاند ، حاول موسى أن يقرّب إلى أذهانهم دلائل عظمة الله ، فذكر لهم أنفسهم وآباءهم فقال : " رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ " ، والدلائل المذكورة هي دلائل أقرب المنظور من العاقل ، وهي من البراهين على الصانع الخالق ، وهذا الدليل لم يتفطن اليه فرعون وما عطف عليه ، الأمر الذي استدعى توضيحا أكثر ودليلا آخر تحصل مشاهدته ومعاينته كل يوم ، حتى لاتترك

---

(١) ـ سورة الشعراء : من الآية ٢٣ الى الآية ٢٨

فرصة للمعاندين يتعللون بها ، فقال لهم "رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ"(١).

وهذا البرهان " من أظهر ما استدل به "(٢) ، لأن طلوع الشمس وغروبها من الوسائل المادية الحسية التي يرى حركتها فرعون وملؤه ، ويحسون بحرارتها ويرون نورها في النهار ، ويدركون غروبها بحلول الظلام إلى غير ذلك ، فهذه الحركة الدائبة هي من آيات الله الخالق الذي يدعو إلى عبادة موسى . وليس هناك دليل أعظم وأقرب إلى الانسان من نفسه ومحيطه .

إن تفصيل القول في هذا الموقف كان يهدف الى توضيح الأمر وتقريبه من نفوس المعاندين لعلهم يستجيبون ، فكان بذلك في غاية الدلالة ومنتهى الايناء .

وكان لهذا التفصيل دور خطير في تأزم الصراع وتطوره ، وفي تحويله من مجاله الفكري إلى مجال مادي حركي . ويدعم رأينا ،في مثال آخر ، تلك الحجج والتوضيحات والدلائل التي حشدها ابراهيم عليه السلام لإظهار عظمة الله وأحقيته بالعبادة وحده ، حيث قال بعد حواره

---

(١) ـ سورة الشعراء : ٢٨

(٢) ـ الزمخشري : الكشاف ـ م ٣ ص ٣٠٨

وانظر كذلك ، د. محمد يوسف موسى ـ القرآن والفلسفة ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٣ ـ ١٩٧١ ـ ص ٥٥

لأبيه وقومه : " أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ، إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ "(١) . وكان يكفي إبراهيم عليه السلام ، أن يتبرأ من آلهتهم وينتسب إلى الله رب العالمين الذي أفرده بالعبادة ، فيكون المعنى سليماً وافياً ، ولكن السياق الذي جاء فيه القول ، كان يتطلب تفصيلا ، فلقد عاتب إبراهيم قومه من قبل ، على عكوفهم على عبادة أصنام لاتضر ولا تنفع ، وعندما انتقل إلى الحديث عن الله رب العالمين ، استوجبه ذلك ذكر مايتميز به ربه عن آلهة قومه فعدد بعض فضل الله عليه التي تعد دلائل وآيات على قدرة الله ، والتي تهدي كل ذي عقل متدبر إلى إدراك وجود الله ، فذكر الخلق والهداية ، والإطعام ، والإسقاء ، والإمراض ، والإشفاء ، والإماتة ، والإحياء ، والمغفرة ، التي هي من خصائص الله سبحانه وتعالى ، والتي لاتستطيع فعلها آلهتهم .

وهكذا فقد كان التفصيل مطلوبا أمام هذا الموقف الاستدلالي ليتبين القوم الحق من الباطل ، ويتيقنون ممن تحق له العبادة ، أألله خير أم ما يشركون .

---

(١) - سورة الشعراء : من الآية ٧٥ الى الآية ٨٢ .

ومن هذا اللون الذي يتخذ البسط منهجاً، ما استعمل به السرد قصة موسى في سورة القصص، حيث يقول تعالى : "إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ"(١)، فالسرد في هذه المقدمة، قد أجمل أولاً، ثم فصل بعد ذلك، فلقد أجمل في قوله تعالى : "إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ،" ثم فصل ما أجمل في قوله تعالى : "وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ"، فوضح العلو في الأرض، باستضعاف خلق الله، من تقسيمهم إلى شيع، يسلط على بعضها أساليب القهر والعذاب، وذلك بذبح الولدان، وسبي النساء، وهي جرائم شنيعة في حق خلق الله، "لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقر على هذا الجور"(٢).

إن فرعون للأسباب المذكورة عُدَّ من المفسدين، واستحق بذلك أن يؤخذ ويعاقب وتنزع منه السلطة التي حولته إلى جبار.

ويستفاد من هذا، أن التفصيل اللغوي كان لغرض حدثي نتبينه عندما نعلم حكم الله بعد ذلك، وهو الحكم الذي يقرر توريث الأرض لأولئك المستضعفين

---

(١) - سورة القصص : ٤

(٢) - الباقلاني : اعجاز القرآن - تحقيق : السيد أحمد صقر - دار المعارف مصر - ط ٢ - ص ٩٩٤

الذين استذلهم فرعون وجنوده ، " وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ "(١).

إنه لتبرير هذا القرار ، أورد السرد جملة من الأسباب توضح جرائم فرعون، وعلوه، واستكباره، وتجبره ، وإفساده في الأرض ، والجمل هذه استوجبت إزاحته من مهمة الاستخلاف ، فوافق الأسلوب المفصل طبيعة الموضوع الذي يتطلب الإفادة، والإقناع ، والشرح ، ليتبين السبب الموجب للقرار . والتفصيل يظهر بصورة جلية في حال تستوجبه حقاً ، كتلك التي سُئل فيها موسى عليه السلام ، عما يمسك بيده ، فقال : " هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ، وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى "(٢).

لقد كان رد موسى مجملا في قوله : " هي عصاي "(٣) ، وكان يكفي كجواب على السؤال الموجه إليه ، ولكن السرد عدد جملة من المنافع والوظائف التي تنهض بها العصا ، أو تستخدم فيها ، وهي وظائف ليست خاصة بها وحدها ، بل " تشترك فيها مع بنات جنسها من العيدان "(٤) ، وكأن

---

(١) ـ سورة القصص : ٥

(٢) ـ سورة طه : ١٨

(٣) ـ ان الأداة (ما) في قوله تعالى : " وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ " هي مايستفسر به عن الجنس ، ولكن موسى في جوابه زاد ، فذكر المبتدأ ، وأضاف العصا ، وبسط الكلام ، وهذا نوع من الاسهاب المطلوب .

(٤) ـ الزمخشري : الكشاف ـ م٣ ـ ص ٧٥

تقـــويـم الفصل الا و ل

ان الأسلوب في السرد القصصي في القرآن يختلف من حيث الطول والقصر، باختلاف الموقف الذي يعبر عنه ، فلقد وجدناه يمتاز بالقول السريع الخاطف ، القائم على قصر الجمل والتوقيع الموسيقي في آخر الفواصل ، إذا كان الموقف انفعاليا(١)، وذلك للتأثير على المتلقي، بإمطاره بوابل من الجمل القصيرة الموقّعة توقيعاً موسيقياً ، على أن يشحن السياق القصير باضافات ذات دلالة منهجية لحكمة معينة .

ان هذه الخاصية تعد ميزة لتلك القصص التي عرضها القرآن في بداية المرحلة الأولى للدعوة الاسلامية ، حتى يكون التأثير بها على عواطف المتلقين أشد في تلك المرحلة ، نظرا لما كانت تتسم به طبيعة العرب من ميل للاسلوب الموجز الموقع(٢) ، وتفضيله على غيره من أنواع الأساليب، حتى أنهم جعلوا البلاغة معادلة للإيجاز .

ولقد وجدنا أسلوب السرد القصصي في القرآن يتسم أيضا بالبسط والاسترسال

---

(١)ـ ان العنصر الانفعالي يساهم مساهمة واسعة في لفت الانتباه ، فاثارة انفعال معين هو أفضل السبل لجذب الانتباه .
انظر في هذا المجال ، ابراهيم الخطيب : نظرية المنهج الشكلي ـ مؤسسة الابحاث العربية ـ بيروت ـ ط ١ بالعربية ـ ١٩٨٢ ـ ص ١٧٨

(٢) ـ د. عبد المالك مرتاض : النص الأدبي من أين؟ والى أين ؟ ص ٧٨، ٧٩

وذلك حين يكون الموقف يتطلب التوضيح والابانة والاقناع ، ولا يتم الا بهذه الوسائل .

ولاحظنا بأن هذا اللون من الاسلوب تمتاز به القصص التي توضح التكاليف الجديدة ، أوتخاطب بني اسرائيل أوتتصل بهم ، فالسارد يشاء أن يضع الحقيقة المفصلة أمام أعين كل ذي عقل مستنير ليتبين الحق من الضلال ، فهو يبسط الحديث في الموضوع حتى تكون مواعظه والجة في نفس المتلقي ، وحججه ظاهرة لمختلف الأفهام والمشارب .

وذلك حين يكون الموقف يتطلب التوضيح والابانة والاقناع ، ولا يتم الا بهذه الوسائل .

ولاحظنا بأن هذا اللون من الاسلوب تمتاز به القصص التي توضح التكاليف الجديدة ، أوتخاطب بني اسرائيل أوتتصل بهم ، فالسارد يشاء أن يضع الحقيقة المفصلة أمام أعين كل ذي عقل مستنير ليتبين الحق من الضلال ، فهو يبسط الحديث في الموضوع حتى تكون مواعظه والجة في نفس المتلقي ، وحججه ظاهرة لمختلف الأفهام والمشارب .

الفصل الثاني

التناسب بين الجمل، والسرد القصصي في القرآن

- تمهيد
- الربط العقلي
- الربط النفسي
- تقويم الفصل

تمهيد
xxxxxxxx

ان التأليف بين الأشياء ، في الأدب والفن ، هو مطلب كل مبدع ، ومبتغى كل صاحب صنعة ، إذ هو المقياس الدقيق الذي به تقاس مراتب البراعة ودرجة الذوق في تلك الابداعات والفنون ، خصوصا في الفنون ذات الألوان والعناصر الكثيرة ، فإن تعديل المزاج وتقويم النسق بينها ، أشد إعناتاً وأقسى تكليفاً من اللون الواحد ، أو العنصر المنفرد حيث يتطلب مهارة عالية وخبرة واسعة في مجال الفن ، وذوقاً رفيعاً في كيفية التنسيق .

ولقد أرجع النقاد قديماً وحديثاً ، الجمال في الأشياء كلها الى ما بين عناصرها من علائق وانسجام ، سواء كانت هذه الأشياء حسية أم عقلية ، فمثلا ، نجد اتفاق " ريتشاردز " و " كوليردج " على مفهوم التناسق ، إذ تبدو خلاصة رأيهما في أن التناسق رهين بقبول العناصر المختلفة للتعايش فيما بينهما ، " وأن الشاعر يحقق التوازن بين الكيفيات المتناقضة ، فهو يخلق عالَماً يأتلف من انسجام الوحدة والتنوع ، وتوافق الكلي العام "[1] .

ويعي عزالدين اسماعيل أن الفلاسفة والنقاد يرون أن علة كل جميل

---

(١) ـ د. مصطفى ناصف : مشكلة المعنى ـ مكتبة الشباب ـ القاهرة ـ ط ـ ١ ـ ١٩٧٠ ص ٧٠

اتساقه وتناسب عناصره ، حتى أن الصورة الجميلة هي في الواقع نتيجة لتشابك أجزائها في علاقات فيما بينها[١] ، وبذلك يعود تفضيل شيء على شيء إلى مدى تناسق أجزائه وتآلفها ، ويرجع فضل قطعة أدبية على أخرى الى النظم ، أي وضع الكلمات والجمل بعضها مع بعض الموضع الذي يقتضيه المقام .

ويرى عبد القاهر الجرجاني ، أن " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالاتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل "[٢] . وهذا القول يتصل ، كما هو واضح ، بمحاولة فهم اعجاز القرآن .

ان الغرض كذلك من نظم الجمل ليس بترتيبها دون رابط ، بل " هو نظم كل جملة مع أختها بالنظر الى الترتيب ، بحيث ترتبط كل جملة في الاسلوب بأخواتها ، فتكون آخذة بحجزة ما أمامها متصلة بها "[٣] . معنى ذلك أن نظم الجمل قائم على ايجاد العلائق بين ما أنتجه نظم

---

(١) د. عزالدين اسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي - دار الفكر العربي - القاهرة - ط٣- ١٩٧٤ - ص ١٢٥

(٢) - عبدالقاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز - ص ٩٣

(٣) - البقاعي برهان الدين : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ١ مخطوط رقم: ٢١٣ - تفسير - دار الكتب المصرية - ص ٢

الكلمات من جمل ، وليست هذه العلائق بين الجمل علائق أطراف وحواشٍ بل هي علائق في المضمون والمحتوى ، ذلك أن الجملة واقعة وسط الشيء والمضمون هو قلب الاسلوب ، فاذا أخذ كل عنصر بوسط العنصر الذي يجاوره ، فان العلائق تكون قوية ومتينة ، فتحصل بذلك قوة الاسلوب وجماله وتناسقه .

والقرآن الكريم هو قمة الجمال ، وهو المثل الاعلى والنموذج الأمثل للتناسق والتناسب .

وسنحاول ان شاء الله أن ندرس خصائص هذا الرابط التنسيقي بين الجمل والآيات في السرد القصصي القرآني .

الربـــط بيـــن الجمـــل

بان ذكـر الجـملة بعد الجملة الأخرى ، أوالآيـــة بعد الآيـة ، لابد أن يكـون مرجعه إلى معنى رابط بينهـما ، يجعل الكلام يأخـذ بعضه برقـاب بعـــض ، " فيقوى الترابط ، ويصير التأليف حاله حال البنـاء المحكم المتـلائم الأجـزاء "(١) . وقد يكون هـذا الرابط عقليـا ، كما قد يكون لفظيا .

١ ـ الرابـط العقـلـــي

ومـن أمثلة الرابط العقـلي ، كما جاء في السرد القـصصي في القـرآن ، ماورد فـي قـوله تعـالى : " وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ "(٢) .

ان المـراد من الجـملتين هـوالتنبيه على نعم الله المبـسوطة على قوم هود ، ولما كان المقام يقتضي الاعتناء بهـذا الشأن ، فإن الجـملة الثانيـــة " أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ " ، وردت لتفصل ما أجملتـه الأولـــى ، لكونها أوفى من سابقتهـا بتأدية المراد ، فنزلت بذلك منه الأولى منزلـــة بدل البعض من الكل ، حيث ان الجملة الاولى " أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ " ، تشمل الأنعام وغيرها(٣) . وانزال الجملة الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني

---

(١) ـ الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله : البرهان في علوم القرآن ـ تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار احياء الكتب العربية ـ ط ١ ـ ١٩٥٧ ـ ص ٣٦

(٢) ـ ســورة الشعراء : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤

(٣) ـ التفتازاني مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدين : شـرح الســعد ج ٣

هو الدعامة التي أذنت باتصال الكلام ، وكانت الرابط العقلي بين الجملتين الأولى والثانية .

ومن هذا اللون الذي تقوم فيه العلاقة العقلية بدور الرابط ، قوله تعالى " قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ، قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ، قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ، قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ "(١).

لقد ضُمت هذه الجمل إلى بعضها دون وسائل الربط اللفظية ، وكانت العلاقة التي ربطت بينها هي ذلك السؤال المقدر بعد كل جملة أو قول .

إن مجيء الترتيب على هذا النمط "إنما يكون على حسب" مايقع في أنفس المخلوقين من السؤال ، فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم دخل قوم على فلان، فقالوا كذا ، أن يقولوا : فما قال هو ؟ ويقول المجيب ، قال كذا ، أخرج الكلام ذلك المخرج ، لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه ، وسلك معهم باللفظ المسلك الذي يسلكونه "(٢).

= المعنى : مختصر المعاني في علوم البلاغة ـ تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطابع المدني ـ مصر ـ ص ١٠

(٢) سورة الشعراء : من الآية ٢٣ الى الآية ٣١

(٣) ـ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ـ ص ٢٤٤

وهذا التقدير والتفسير هو مايمكن أن يعمل به في كل ماجاء فيه لفظ " قال " على هذا النحو(١).

ومن هذه الامثلة التي لايوجد بين جملها رابط لفظي ، ماجاء في قوله تعالى : " كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ "(٢).

لقد وردت هذه الآية عقب قوله تعالى : " أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ "(٣).

إن الحادثتين مختلفتان ، ولكن علاقة الكراهة وحدت بينهما ، وربطت بينهما ، فلقد كره المسلمون خروجهم للقتال في غزوة بدر ، كما كرهوا الطريقة التي وزعت بها الأنفال ، ولكن كما ظهرت النتيجة التي خرج من أجلها المسلمون يوم بدر ، حيث ظفروا بالخير الكثير ، فكذلك يكون الخير في هذه القسمة ، " فليطيعوا مَا أُمِرُوا به ، ويتركوا هوى أنفسهم "(٤).

وهكذا نستطيع أن نقول بأن ترتيب الجمل في سياق القرآن خصوصا تلك التي لاترتبط مع غيرها بأدوات الربط المعروفة ، يقوم على إدراك عقلي لطبيعة العلاقات بينها .

---

(١) ـ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ـ ص ٢٤٥

(٢) ـ سورة الأنفال : ٥

(٣) ـ سورة الأنفال : ٤

(٤) ـ محمد الصادق قمحاوي : الايجاز والبيان في علوم القرآن ـ مكتبة عالم الفكر ـ القاهرة ـ ص ١٥١

وهذا يتطلب تأملا مستمرا في العلاقة العقلية بين الجملتين ، ومعرفة دقيقة لطبيعة العلاقات بين الجزء والكل ، بمعنى ، أن الدارس ينظر في الغرض الذي سيقت له السورة مثلا ، وينظر ما يحتاج ذلك من مقدمات ، وينظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له .

ب- الرابط اللفظي

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

يستعين السرد القصصي في القرآن على ربط أجزاء نصه بأدوات الربط اللفظية ، إذا كان بينهما صلة في المعنى والمبنى ، مثل ذلك ، قوله تعالى : " فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ " (١) .

إن نظرة سريعة إلى هذا المثال تطلعنا على مجموعة من الجمل الفعلية القصيرة المتتالية ، المترابطة بحرفي العطف : " الفاء "(٢) و " الواو "(٣) ، وحشدها في السياق القصصي على هذه الوتيرة ، يوحي بنوع من السرعة ،

---

(١) - سورة القمر : من الآية ١٠ الى الآية ١٤

(٢) - الفاء : تفيد الترتيب والتعقيب من غير تراخ .

(٣) - الواو : يفيد التشريك والترتيب والتعقيب .

انظر : عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز - ص ٢٣١

وانظر : السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة - ص ١٩٨

ذلك أن "الفاء" التي تفيد الترتيب والتعقيب من غير تراخ ، تتولى التوصيل في أربعة مواضع من بين ستة ، وهذه النسبة تفيد أن سرعة الأحداث وحركتها هي الصفة الغالبة على الصفات الأخرى ، فتوافقت بذلك الصورة البنائية مع الصورة المعنوية ، حيث عبرت الجمل الفعلية القصيرة المتعاقبة بسرعة عن الموقف الانفعالي الذي سرده القرآن .

لقد دعا نوح عليه السلام ربه وهو يتفجر غيظاً ، "إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ"(١) ، وكان في دعائه هذا يطلب التعجيل بالانتقام ، حيث أتبع وصف حاله ، "إِنِّي مَغْلُوبٌ" بدعاء مستعجل يضع حدا لجبروت قومه ، فقال: " فَانْتَصِرْ" ، فعبر عن استعجاله بفعل واحد موصول مع الدعاء " بالفاء" العجلى ، يعلن فيه عن أهمية السرعة في تنفيذ النصر .

وأمام هذه الضراعة المستعجلة كان أمر الله حاضراً ، ففتح السماء بماء مُنْهَمِرٍ ، وفجر الارض عيوناً ، وساد الأرض كلّها الماءُ الذي أغرق أهل الكفر . وعبر الرد عن سرعة التنفيذ التي لاتحتمل تراخيا أو مهلة بالفاء ، ليدل على أن أمر الله حاضر ولايكون منه التأخير أبداً .

ومما يجيء في هذا الباب ، قوله تعالى في قصة ولادة عيسى عليه السلام :

---

(١)- سورة القمر : ١٠

" فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا "(١).

إن السارد قد جمع بين أفعال ثلاثة متتالية زمنيًا ، بأداة ربط تفيد الترتيب والتعقيب ، ليوحي بتتاليها ، دون التراخي في الزمن بين الفعل الأول "فحملته " والفعل الثاني " فانتبذت" والفعل الثالث " فأجاءها "، وليدل على أن الحمل والوضع كانا متقاربين وقعا على الفور من غير مهلة ، ذلك أنه لو كان حملها مثل النساء ومخاضها جاء بعد الفترة المحددة للحمل ، لَتَمَّ الْعَطْفُ بِثُمَّ التي تفيد التراخي والمهلة .

ولما كان الحمل والمخاض وقعا في فترة زمنية متقاربة ، فإن العطف بين الحدثين كان بالفاء التي تفيد التعقيب دون تراخ ، فتوافق بذلك المبنى مع المعنى ، وعبر عن المدة الزمنية الفاصلة الوجيزة بين الحمل والوضع بما يتلاءم معها ويتناسب .

ومما يدعم هذا الرأي المستنبط من التركيب اللغوي للأحداث ، قول ابن عباس حينما سئل عن حمل مريم ، فقال :" لم يكن بين الحمل والانتباذ إلا ساعة واحدة ، وذلك لأنه تعالى لم يذكر بينهما فصلا ، لانه قال : فحملته ، فانتبذت ، فأجاءها ، والفاءات للتعقيب(٢)، هذا فصلا

---

(١) ـ سورة مريم : ٢٢ ، ٢٣

(٢) ـ الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن م ٤ ـ ج ١١ ـ ص ٣٠

وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ـ م ٤ ص ٤٤٧

على أنه جعله مثل آدم ، حين قال : "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ "(١).

والقول هنا أن خلق عيسى كان معجزة إلهية لم يحدث أن وقعت على الأرض قبل عيسى إلا مرة واحدة عند خلق آدم من تراب . ولقد عبر الأسلوب السردي عن معجزة الحمل بلغة مركبة تركيباً يتناسب وسرعة الحمل والولادة ، فكان بذلك معجزة لغوية متناسبة مع المعجزة الخلقية التي أفصحت عنها وصورتها .

وهكذا تعاضلت المفاصل وتشابكت المضامين في هذه القصة ،لتخرجها في شحنة للمعنى فيها صورة في المبنى .

ومن اللون الذي تتوالى فيه الأفعال المعبرة عن الأحداث المتتالية ، والتي تتولى الجمع بينها حروف العطف ، قوله تعالى : " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ "(٢) . ثلاث جمل فعلية متتالية ، عبرت عن أحداث ثلاثة قامت بها امرأة العزيز .

هذه الأفعال تترتب بصفة منطقية من حيث الزمان ، فلقد طلبت امرأة العزيز من يوسف تلبية نزوتها الجنسية ، ثم تلت ذلك بتهيئ الجو

= وانظر : القرطبي : الجامع لاحكام القرآن - ج ١١ - ص ٩٢

وانظر: الصاوي : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين - م ٣ - ص ٣٤

(١) سورة آل عمران : ٥٩

(٢) سورة يوسف : ٢٣

المناسب ، حيث غلقت الأبواب لتشيع الأمان في نفس يوسف ، وَأُتْبِعَتْ هذا التهيؤ بتقديم نفسها له عن رضى واستسلام .

إن السرد في هذه الأحداث قد استعان بحرف العطف " الواو " ، الذي " يفيد معنى الجمع ، فيعطف به اللاحق والسابق[١] " ليعبر عن تسلسلها وتتابعها بصورة منطقية ومقبولة ، كما عبر عن الأحداث التي تليها ، بالكيفية نفسها ؛ حيث رتبها ترتيباً حسب حدوثها في الواقع ؛ إذ جاء هذا الترتيب على الصورة التالية ، " وَاسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ، وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى ٱلْبَابِ "[٢]

إِنَّ فِعْلَ الاستباق وقع من الطرفين ، امرأة العزيز ، ويوسف ، وَفِعْلَ قَدِّ القميص كان من امرأة العزيز ، تريد به إعادة يوسف إلى الداخل ، ومنْعه من الخروج ، وَفِعْلَ الإلفاء كان من الطرفين أيضا ، لأنهما كانا عند البابِ حينما فتح .

لقد وردت هذه الأفعال مرتبة ترتيباً زمنياً ، وترتيباً مكانياً داخل فضاء القصة على الصورة التي عرضت بها . وتولى هذا الترتيب حرف العطف "الواو " ، فيكون بذلك قد حقق التوافق بين الترتيب الفعلي المعنوي ، والترتيب اللغوي البنائي .

---

(١) ـ الشريف قِصار : معاني الحروف في القرآن الكريم ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ ١٩٨٤ ـ ص ١٢٣

(٢) ـ سورة يوسف : ٢٥

ومن الأمثلة التي يتنوع فيها الربط بين أجزاء اللغة المكونة للنص ، ليتناسب المبنى مع المعنى ، ما نقف عليه في قوله تعالى:

" .. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ "(١) .

إن الأداة المستعملة للربط بين الإطعام والإسقاء ، كانت هي " الواو " ، وذلك بقصد الجمع بين الفعلين ، وليس بقصد الترتيب أو التعقيب ، حيث انه يمكن تقديم فعل الإسقاء على فعل الإطعام ، وهذا جائز ، لولا مراعاة حسن النظم(٢) . أما الربط بين المرض والشفاء ، فكان بالفاء التي تفيد التعقيب ، وهذا لأن الشفاء يعقب المرض بدون فراغ زمني بينهما ، أو من أحدهما . وتم الربط بين الموت والاحياء بالأداة " ثم " التي تفيد التراخي ، لأن الإحياء يكون بعد الموت بزمان ، ولذلك كان التعبير عن هذا التراخي بأداة تملك هذه الخاصية ، فتوافق بذلك البناء والمعنى ، وتم التناسق الكلي بين عناصر الجملة .

---

(١) ـ سورة الشعراء : ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١

(٢) ـ الواو في الأصل حرف وضع لمعنى ـ انظر :
الشيخ كمال الدين أبي البركات الأنباري النحوي : الانصاف في مسائل الخلاف ـ ج ٢ ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ بمصر ـ ط ٤ .
١٩٦١ ـ ص ٢٥٩

وكان يمكن للآية أن تتركب على هذا النسق ، الذي يطعمني ويسقين ، ويمرضني ويشفين ، ويميتني ويحيين ، ويكون للكلام معنى تام ومفهوم ، ولكنه لايملك ذلك المعنى الدقيق الذي أكسبته للآية الحروف المستخدمة في ربط معاني الآية وأفعالها ، إذ أن كل شيء منها قد عطف بما يناسبه ويقع منه موقع السداد .

ومن أمثلة العطف الطريفة التي تخفى فيها العلاقة المتسببة في الجمع بين أجزائها ، ماجاء في قوله تعالى : "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ "(١).

إن الرد قد ربط بين الآيتين بحرف عطف ، هو الواو ؛ حيث عطف الآية الثانية التي تبدأ من : " وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ " على الآية الأولى التي ابتدأت بها السورة ، "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا .." وكان الجامع بين الآيتين الذي سوغ هذا الربط ، هو أن " الأولى متعلقة بعطايا سيدنا محمد (ص) ، وهذه متعلقة بعطايا موسى عليهما السلام " (٢) ، فسيدنا محمد (ص) أسري به من المسجد الحرام الى

---

(١)ـ سورة الاسراء : ١ ، ٢

(٢) ـ الصاوي : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ـ م ٢ ـ ص ٣٣٩

المسجد الاقصى ، وعرج به الى السماء ،كما منح موسى شرف السير الى الطور ، وأعطي التوراة .(١)

وهكذا فقد كان العطاء الذي يشتركان فيه هو الجامع ، فجيء بالواو الذي يفيد التشريك ، للربط بينهما ، حتى يتم التلاؤم بين ماهو معنى وماهو مبنى .

---

(١) الصاوي: حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ـ م ٢ ـ ص ٣٣٩

تقـــويـم الفصل الثـانـــي

إن أسلوب السرد القصصي في القرآن ، يفد ، في جانب كبير منه ، من التكيف بالربط العقلي أو اللفظي ، بصورة تجعله مهيأ للتعبير عن الحدث ، لاسيما المركب منه ، بطريقة مسلسلة ومنطقية دالة ، لاتقبل الأمرين ، ولا تتسع لهما ، بل تحصر المتلقي في فائدة واحدة ، ورؤية لامحيص عنها ، كما تجذبه للتلقي المستمر والمتابعة ، بفاعلية أمور دقيقة ومحددة ليست عامة .

ان الربط العقلي يتولى ربط الجمل والآيات وفق علاقة معنوية ، ويدركها المتلقي من خلال التأمل المستمر لطبيعة العلاقات بين الجزء والكل .

والرابط اللفظي ، ويتمثل في الوسائط النحوية التي تتولى الجمع بين جمل وآيات تتشابك مضامينها ، أو تتلاقى معانيها ، على الوجه الذي يقتضيه العقل ، كمثل مانجد في الربط بين الأفعال والوقائع في حادثة المراودة ، أو في حادثة ولادة عيسى عليه السلام ، أو في واقعة التدليل والبرهنة على عظمة الله من قبل ابراهيم عليه السلام . والوسائط النحوية أدت الرسالة القصصية ، والمواقف ، أداء دقيقا

لايترك ثغرة أو خللا أو فتورا ، حيث وقعت كل منها موقع السداد ، وربطت كلا بما يناسبه ، فتم بذلك التوافق بين البناء والمعنى ، والتناسق الكلي بين عناصر النص .

الفصل الثالث

ظاهرة التأكيد وأسلوب السرد القصصي في القرآن

- التأكيد بـ إنّ
- التأكيد باللام والنون
- تقويم الفصل

أسلوب السرد القصصي في القرآن وظاهرة التأكيد

لايتخلف أسلوب السرد القصصي في القرآن قيد أنملة عن ترجمة الأحداث ومواقف الشخصيات ، ولايتوانى عن نقل عواطف المتحاورين والمتصارعين ، والتعبير عن آرائهم وأفكارهم ومواقفهم بصورة جلية ومعبرة .

والمتفحص لقصص القرآن لايلقى عنتاً في أن يجد أسلوبا يجسد معاناة الأنبياء من أجل إقناع أقوامهم بما يدعونهم إليه، كما لايجد مشقة في استكشاف صور العناد التي أبداها المدعوون ، ويمكن معاينة هذا التجسيد وهذا التصوير في أساليب الحوار التي يعبر بها كل من المتحاورين عن رأيه، وليس بالضرورة أن تشتمل كل قصة على حوار ؛ فقد كانت القصص القصيرة التي نزلت في المرحلة الأولى خالية من هذا الأسلوب ، لأنها كانت قائمة على رسم الأحداث (١) للتأثير بها على عواطف المتلقين .

ونجد هذا اللون من الاسلوب الحواري بشكل واضح في السور الطويلة التي كان يراد بها التثبيت أو شرح المبادئ الإسلامية ، مثل :

---

(١) ـ محمد كمال الدين : العرب والمسرح ـ كتاب الهلال ـ العدد ١٦١ بتاريخ : ٥ مايو ١٩٧٥ ـ ص ٧٤

سورة الشعراء ، أوهود ، أوالأعراف ، أوقصة موسى في طه ، أوقصة يوسف ، أوقصة ابراهيم في سورة مريم والأنبياء "(١).

والحوار، في الأغلب الأعم، يدور بين النبي وقومه حول الموضوعات الدينية، من أمثال : وحدانية الله ، البعث ، بشرية الرسل، أو المعجزات الخارقة الدالة على النبوة ، وقد وظف القرآن الكريم الأسلوب المناسب والملائم لهذه المواقف، واختار منه مايعكس طبيعة الصراع بين العقيدة التي جاء بها النبي ، وبين الاعتقاد القائم بين القوم المبعوث اليهم .

وكما هو معلوم ، فإن الدعوات الجديدة والأمور المستحدثة ، غالباً ماتقاوم في أول أمرها ، وتجابه بمعارضة عديدة ، ولايتم قبولها والإذعان لها إلا إذا كانت تحمل طموح القوم وتلبي رغباتهم ، ولذا يكون لزاما على الداعي أن يكون عرضه قويّاً يستطيع أن يفرض على المتلقي ضغوطاً تجعله يستمع لما يلقى إليه ، ويثير اهتمامه ، ويشد انتباهه ، ويفسح أمامه سبل الآمال ، " وإنما يرسل النبي ، وليس معه إلا اللسان أدوم الأسلحة ، وأقوى وسائل الإصلاح "(٢) ، لنشر عقيدة

---

(١) ـ راجع هذه السور

(٢) ـ د. عبد الحليم حفني ـ أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ط ٢ ـ ١٩٨٥ ـ ص ٢٢

التوحيد ، وإزالة عبادة الوثنية من على وجه الأرض ، ولذلك نجده يودع كلماته التي يشكل بها أسلوبه قدرة الفعل والمقاومة ، ويدخلها في معركة طاحنة ضد قوى التردد والإعراض ، ويحملها مؤونة وليدة النقد الواعي للأوضاع ، والدعوة الى التغيير نحو الأقوم . وبذلك تصبح اللغة غير حيادية المضمون ، بل مرتبطة به ارتباطا عضويا ، إلى حدود التفكير أنها هي التي تصارع .

ولما كان الكلام الذي يفتتح به الأنبياء والرسل دعواتهم يلقى إلى أقوام لهم أحكام واعتقادات تخالف الأحكام والعقائد التي جاؤوا بها ، فقد لزم الأمر تقوية الكلام من أجل تقوية الحكم وتثبيته ، ذلك أنه "إذا كان الكلام مع المنكر ، كانت الحاجة إلى التأكيد أشد"(١).

ولتوضيح هذا الأمر ، نضرب أمثلة من واقع دعوات الأنبياء ، كما أظهرها القرآن من خلال السرد القصصي ، ففي قوله تعالى حكاية

---

(١) ـ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ـ ص ٣١٢

وانظر: السيوطي : حاشية السيوطي على مفتاح العلوم ، للسكاكي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ص ١٣٢

وانظر : التفتازاني : شرح السعد ج ١ ـ ص ٨٠

عن نوح عليه السلام ، وهو يقول لقومه : " أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١) . نجد هذا الرسول قبل أن يعرض موضوع الدعوة ، يعرف بنفسه وبمهمته بأسلوب قوي ومثير ، وهذا حتى يهيئ الجو المناسب للعرض ، ويمهد نفوس المتلقين لما سيلقى عليهم ، لأنه إذا تم الاعتراف له بمهمته فسيضمن النجاح لدعوته .

ولذلك ، فقد لجأ إلى تقوية كلامه بمقويين ؛ حيث استعمل أداة التوكيد " إِنَّ " في بداية كلامه لتجرف نتوءات التردد وعفن الإنكار ، وتهيئ النفوس لإنزال الموضوع وعرضه ، ثم فَرَشَ الأرض وبسطها بعبارة تهز عاطفة القوم ، وتلين نفوسهم ، وتبعث الثقة فيهم ، ليصغوا الى ماسيقوله لهم ،ويعتقدوا فيه خيراً ، لأنه هو واحد منهم ، وما يصيبهم من مصائب يؤلمه ويحزنه ، فقدم لهم عبارة: " لكم " قبل تقديم الخبر ،ليشير بها الى عظيم العناية بهم ،وينبه الى العناية الموجهة لهم ، حتى يدفع عن نفسه شبهة الإنكار ونظرة الشك والريب .

بعد هذا التمهيد المقصود المهيئ لنفوسهم وعقولهم ، يقدم لهم الخبر الدال على مهمته ، فيقول : " إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ " ،

---

(١) - سورة الشعراء : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨

رسول من الله أبلغ تعاليمه وأوامره ونواهيه ، وأمين " على تبليغ ما أرسلت به (١). فيكون بذلك قد وظف كل وسائل التأكيد والاثارة والتقوية ، لتثبيت الخبر وتحقيق صحته .

والاسلوب نفسه سلكه كل الرسل في دعواتهم ، حسب ماسرده علينا القرآن الكريم في قصصهم . ففي سورة الشعراء ، التي تضم سبع قصص ، قدم كل رسول عرضه في أسلوب مؤكد بـ" إِنَّ " ، ماعدا قصة ابراهيم عليه السلام ، فقال موسى وهارون لفرعون : " إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٢) " ، وقال نوح : " إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (٣) " ، وردد عبارة نوح كل من هود وصالح ولوط وشعيب (٤) وذلك لانهم كانوا يدركون ما تنطوي عليه نفوس أقوامهم ، الأمر الذي جعلهم يتعينون في محاولة إِقْنَاعِهِمْ بأدوات (فنية) لغوية ، تعطي لكلامهم قوة ، وتكسبه متانة وصلابة ، وفي الوقت نفسه تحاول إزالة الشكوك والظنون عما يقولونه ، فصدروا كلامهم بأداة التوكيد " إِنَّ " ، حسب ما يرد لنا الخالق .

يقول عبد القاهر الجرجاني : انما يحتاج الى الاداة " إِنَّ " إذا

---

(١) ـ الصاوي : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ـ م ٣ ـ ص ١٨٦
(٢) ـ سورة الشعراء : ١٦
(٣) ـ سورة الشعراء : ١٠٧
(٤) ـ سورة الشعراء : ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ١٧٨ على التوالي

كان للمتلقي " ظن في الخلاف،وعقد قلب على نفي ما تثبت ، أو إثبات ما تنفي ، ولذلك ، تراها تزداد حسناً،إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله في الظن ، وبشيء قد جرت عادة الناس بخلافه "(١).

ورسل الله عليهم السلام ، جاؤوا بأخبار تحمل دعوى لم يسمعها أقوامهم من قبل ، ولم يرق لهم سماعها في حينها ، فاستوجب الرسل هذا الأمر، تقوية كلامهم بـ"إن " ، لمجابهة الإنكار ، وخرق أغشية القلوب وفتحها ، حتى يدخل الإيمان الى مغافها ، وكأنهم عَرَفُوا أَنَّ أقوامهم سوف يسألونهم عن الصفة التي يكلمونهم بها ، ويدعونهم إلى ترك ماهم عليه ، واعتناق ماجاؤوا به هم ، وعن المركز الذي يتحدثون منه اليهم .

لهذه الأسباب ، استفتح الرسل،عليهم السلام،أحاديثهم بأداة التوكيد " إِنَّ " ، التي هي ، في العادة ، تتصدر الجواب عن سؤال " يكون للسائل ظن في المسؤول عنه ، على خلاف ما أنت تجيبه به "(٢).

وإِنَّنَا لو استقرأنا مثلا الآيات السابقة ، لوجدنا الأمر واضحا وبيِّناً في أنه يقصد بها الى الجواب ، كقوله تعالى : " فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ " ، وكأنهما يجيبان عن سؤال

---

(١) ـ عبدالقاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ـ ص٢١١

(٢) ـ نفسه : ص ٢١٢

يترقبانه من فرعون ، يقول لهما فيه ، ماشأنكما ؟ وماجاء بكما؟ وما تقولان ؟ ، فيقولان : " إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ " .

ونستشف هذا التساؤل كذلك ، من العبارة الموحدة(١) التي كررها السرد بألفاظها على لسان الرسل ، نوح،وهود،وصالح،ولوط،وشعيب ، في سورة الشعراء ، عندما بُعِثُوا الى أقوامهم ، فنتمثل الرسول منهم يقول لقومه : " أَلَا تَتَّقُونَ " ، فيتساءل كل قوم عن الصفة التي أهلت هذا القائل ليعرض عليهم ماعرض ، فيكون جوابه : " إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ " .

إن تصدير الرسول جوابه بـ" إِنَّ " سيكون دعما لرأيه ، وتقوية لقوله ، ومحاولة لإزالة علامات الاستفهام التي تتراص في أذهان قومه . ويمكننا ملاحظة ظاهرة تأكيد القول في أساليب الرسل كذلك ، في سورة الأعراف ، حيث يسعى كل رسول الى تأكيد قوله وتقويته ، سواء كان هذا القول يوضح فيه مهمته ، أم يبين فيه العقيدة السليمة ، أو يخوف فيه من عذاب يوم القيامة ، أوغير ذلك

---

(١) ـ يشير هذا القول الموحد الى أن الأديان في أصلها العقائدي دين واحد ، وما هي الامراحل نزلت بها النواميس على وفق الطبيعة البشرية وتطورها .

انظر: مصطفى محمود : القرآن ، محاولة لفهم عصري ـ ص ١٥١

من الأقوال التي تخدم الدعوة الى الله ، والايمان به ؟ (١) إذ ينقل لنا السرد قول نوح عليه السلام ، وهو يدعو قومه إلى عبادة الله ، ويحذرهم من عاقبة يوم الجزاء إن لم يستجيبوا لدعوته ، في صيغة أسلوبية مؤكدة جاء فيها : " يَا قَوْمِ ، اُعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ " (٢).

وينقل لنا كذلك قول عاد وهو يقول لقومه : " أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ " (٣) ، وصالح وهو يبلغ قومه : " قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً " (٤) ، ويقف بنا السرد كذلك على تأكيد لوط لقومه بأن ما هم عليه ليس من صفات البشر الأسوياء ، وأن ما بهم لم يأته بشر من قبل ، بل هو فاحشة يجب تركها ، فيقول : " أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ " (٥).

---

(١)ـ لتوكيد الخبر أدوات كثيرة ، وأشهرها : إِنَّ ، أَنَّ ، لام التوكيد ، أحرف التنبيه ، القسم ، نونا التوكيد ، الحروف الزائدة : (كَتَفَعَّلَ ، اَسْتَفْعَلَ) ، التكرار ، قد ، أما الشرطية ، إِنَّمَا ، اسمية الجملة ، ضمير الفصل ، تقديم الفاعل المعنوي ...
انظر : السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ـ ص ٦٠

(٢)ـ سورة الاعراف :

(٣) ـ سورة الاعراف :

(٤) ـ سورة الاعراف :

(٥) ـ سورة الأعراف :

ويستخدم الأسلوب المؤكد ، كذلك ، شعيب عليه السلام في قوله :
" اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ "(١) ،
ويخاطب موسى فرعون في قالب من أسلوب التأكيد ، قائلا : " إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ ، عَلَيَّ أَلَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ "(٢) .

وهكذا نلحظ في أقوال الرسل الذين جمعهم السرد في سورتي : الشعراء ، والاعراف ، وفي غيرهما(٣) ، ظاهرة توكيد الأخبار(٤) . وهذه الظاهرة توحي بأن الرسل كانوا يلقون عنتا في تبليغ أمر ربهم ، وكانوا يجابهون بمعارضة شديدة ، وإلّا ما كانوا ليستنجدوا بهذه الأدوات اللغوية المقوية ، والداعمة لأساليبهم ، لأن صياغة الاسلوب صياغة ما ، وتشكيله تشكيلا معينا ، إنّما يكون استجابة لحاجة فنية ، أو تلبية لغرض معين .

---

(١) ـ سورة الاعراف : ٨٥

(٢) ـ سورة الاعراف : ١٠٤ ، ١٠٥

(٣) ـ مثل : سورة هود ، سورة يونس ، سورة الانبياء ...

(٤) ـ ان الجدل العنيف متواتر في هذه السور ، ومنه نشأ ذلك التوكيد في شكل يكاد لايختلف تنوعا .

انظر : بلاشير ، ريجيس : تاريخ الأدب العربي ـ ج ١ ـ تحقيق : د. ابراهيم الكيلاني ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر ـ ط ١٩٨٨ ص ٢٥١ .

والـــرد كـان سجلا لعصيـان الامم كـذلـك ، و لإنـكارهم الـعـديـد للدعوات ، فرصد لقوم نـوح أسلـوب تهديدهم رسـولـهـم " لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ(١) " ، ورصد لقـوم عـاد كـذلك تكذيبهم رسـولـهم هـودا " قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ ، إِنْ هَـٰذَا إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ "(٢) ، وعلى ثمود سجل اتهامهم رسولهم بالسحر "إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ، فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ(٣) " ، ونقل عن قوم لـوط إنذارهم لرسولهم بالإخراج من الأرض والنفي بعيداً " لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ(٤) " ، كما أبرز السرد أيضا إنكار أصحاب الأيكة(٥) رسولهم شعيباً "إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ

---

(١) ـ سورة الشعراء : ١١٦

(٢) ـ سورة الشعراء : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨

(٣) ـ سورة الشعراء : ١٥٣ ، ١٥٤

(٥) ـ أصحاب الأيكة هم أهل مدين قوم شعيب ، والقرآن حين أخبر عن مدين قال " أَخَاهُمْ شُعَيْباً " هود ٨٤ ، وحين أخبر عن الأيكة لم يقل " أخاهم " ، والحكمة في ذلك أنه لما عرفهم بالنسب ، وهو أخوهم في ذلك النسب ، ذكره ، ولما عرفهم بالايكة التي أصابهم فيها العذاب ، لم يقل "أخاهم " ، وأخرجه عنهم .
انظر: الزركشي : البرهان في علوم القرآن ـ ج ١ ـ ص ص ١٦٢

وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ "(١)

إن أقوال المكذبين كذلك ، وردت مؤكدة ، هنا في سورة الشعراء ، حيث نجدها تعلن إنكاراً متمرا لما جاء به الرسل ، وهي كذلك ، في سورة الاعراف ، نجدها تكذيباً بالتأكيد ، إذ قال قوم نوح له: "إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ "(٢) ، وقالت عاد لرسولهم " هود " : "إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ"(٣) ، وقال الذين استكبروا من ثمود لرسولهم " صالح " ، ومن آمن معه "إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ"(٤) ، وقال قوم لوط لرسولهم " لوط " ومن آمن معه : " أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ"(٥) وقال قوم شعيب : " لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا "(٦) ، وقال فرعون لموسى والسحرة الذين آمنوا معه : "إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ

---

(١) ـ سورة الشعراء : ١٨٥ ، ١٨٦

(٢) ـ سورة الاعراف : ٦٠

(٣) ـ نفسها : ٦٦

(٤) ـ نفسها : ٧٦

(٥) ـ نفسها : ٨٢

(٦) ـ نفسها : ٨٨

أجمعين "(١).

لقد أصر الاشرار على عدم الايمان بما يدعو اليه الرسل،وَعَبَّرُوا عن هذا الاصرار بأسلوب مؤكد قوي ، تساندت فيه الأدوات اللغوية مع المعاني ، لتكون سداً مانعاً ضد تسرب الايمان الى قلوبهم. ومما يدعم هذا القول ، ورود لام التوكيد في الكلام ،"ولايجيء ذلك إلا لضرب من المبالغة"(٢).

ففي قول نوح مثلا:"إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" ، تساندت لام التوكيد في " لنراك" مع "إِنَّ" في بداية الجملة ، لتدل دلالة واضحة على صلابة الموقف،وقوة الحكم الذي اتخذه القوم ضد رسولهم .

إذ تهم أَتْبَعُوا هذه الأدوات اللغوية بالفعل " نراك "،كايحاء بأن هذا الحكم مستمر ومتجدد ، كلما جدد نوح دعوتهم ، ولا تسراجع عنه ، ثم وصفوه بالضلال المبين ، أي " في ذهاب عن طريق الحق والصواب مبين"(٣) ، وهذا لتسفيه رأيه وإخراجه عن حد المعقول ، حتى لايسمع اليه ولا يؤخذ بقوله .

لقد تآزرت بذلك القوة اللغوية المؤكدة مع المعنى ، لتعلن

---

(١) ـ سورة الاعراف : ١٢٣ ، ١٢٤

(٢) ـ ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ج ٢ ـ ص ٢٧٠

(٣) ـ النيسابوري : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ـ م ٥ ـ ج ٨ ص ١٣٤

الكفر والجحود، وعدم الايمان بمايدعو اليه نوح . وكذلك كان موقف عاد من رسولهم هود ، إذ نعتوه بالسفاهة البينة ووصموه بالكذب الصريح في قولهم : "إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ" .

ولقد نقل السرد هذا الموقف بأسلوب مؤكد بـ"إنَّ" و "اللام" و "النون" ، ليدل على قوة الانكار وصلابة الموقف الذي لايقبل الجدال والمراجعة ، ذلك أن "النون الواردة بعد اللام زيادة في التأكيد"(١) ، بل إنهما "تأكيدان ، أحدهما مردف بالآخر"(٢) ، أضيفا الى الأداة "إن" الواردة في مستهل الجملة .

وموقف قوم ثمود من رسولهم "صالح" لم يخرج عن الخط الانكاري الذي سار عليه من سبقهم من الأقوام ، فلقد أعلنوا كفرهم بما جاء به صالح ، وبما آمن به بعض المؤمنين ، إذ سجل السرد عليهم هذا الحكم المؤكد في قوله تعالى : "إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ"(٣) .

إن حكم القوم ورد في صيغة أسلوبية مؤكدة وواضحة ، زادها قوة ووضوحاً مقابلتها مع صيغة الذين آمنوا والذين قالوا :

---

(١) ـ ابن الأثير : المثل السائر ـ ج ٢ ص ٢٧٤

(٢) ـ نفسه : ص ٢٧٤

(٣) ـ سورة الأعراف : ٧٦

ليعبر بها عن موقف الشخصيات المعارضة للرسل ، سواء كانت شخصيات فردية أم شخصيات جماعية ، كما أنه يكشف بها كذلك عن عواطفها وشعورها وآرائها ، حيال ما جاءت به الرسل ، ليمكن في نفس المتلقي الحكم الذي يقره الله سبحانه وتعالى في حق هؤلاء الأقوام المعارضين ، وحتى تتقبله عن اقتناع تام بعد اطلاعها على المواقف الجاحدة المتحدية .

وهكذا كان التعامل مع اللغة في درجة ألسَّوَاء ، اذ سلك السرد في نظمها مسلكا يلائم المواقف ويتناسب مع حالة الشخصيات ، فاختار العبارات والأساليب التي أظهرت بوضوح حدة مواقف الكفار ، وكشفت عن تلك الحالات النفسية المعاندة والمتصلبة ، حتى كأن هذه اللغة قد اشتقت من أجل تلك المواقف وتلك الشخصيات ، ولتعبر عنها بالخصوص .

ولقد نجد نقاد الأعمال الأدبية الوضعية يؤكدون هذا التوافق الأسلوبي المعنوي في النصوص الأدبية ، وهو التوافق الذي لايقع فيه انفصام في بنية النصوص ، حيث يرون بأن استقصاء الشحن التأثيري في النص ، لايتسنى إلا من خلال فحص الأدوات اللغوية المركبة في صيغ أسلوبية معينة ، وذلك باعتبارها ضربا من البناء

صيغت فيه الأفكار والآراء المعبرة عن الأحاسيس والمفاهيم ، ولأن "صاحب البث في الرسالة الابداعية، لايتسنى له الافصاح عن حسه ولا عن تصويره للوجود ، الا انطلاقا من تركيب الأدوات اللغوية تركيباً يفضي إلى صوغ الصورة المنشودة والانفعال المقصود "(١).

---

(١) ـ د. عبد السلام المسدي : النقد والحداثة ـ ص٣٢

تقويم الفصل الثالث

تبرز ظاهرة أسلوبية جديدة لافتة للانتباه ، في القصص التي كان يراد بها شرح مبادئ الرسل والدعوة للإيمان بالله ، ينعكس فيها من بين وسائل ضبط اللغة في الأساليب النحوية ، التوكيد ، لما كان يترقبه الرسول من شكوك وتساؤلات يجابهها جميعا بهذا الاسلوب الذي صلحت له "إنَّ" دائماً .

لقد أبان السرد بالتوكيد ملاءمة بين مواقف الشخصيات في هذه القصص المذكورة ، وبين الأساليب التي عبرت بها عن هواقفها ، حتى كأنَّ هذه الأساليب قد اشتقت من أجل هذه المواقف وألوان الصراع ، ولتعبر عنها بالخصوص ، بحيث ان المتلقي لايلقى عنتا في ادراك مواقف الشخصيات المتحاورة ، إذا فَحَصَ الأدوات المستعملة للافصاح عن حسها ومواقفها .

وهذه هي لغة القرآن ، لاتتخلف عن رسم السرد الحدثي ، ومواقف الشخصيات فيه ، ولا تقصر في نقل عواطف المتحاورين والمتصارعين والتعبير عن آرائهم بصورة جلية وواضحة ، حتى أننا نجدها تتنوع في إطار القاعدة النحوية الواحدة ، فتستخدم "إنَّ" المؤكدة في مقام على قدرها ، وتلجأ للتأكيد باللام والنون في مركز مخالف يستأهل هذا اللون من التأكيد .

الفصل الرابع

التوافق الصوتي وأسلوب السرد القصصي في القرآن

- تمهيد
- توافق الأصوات في كل من الكلمة والجملة
- موافقة التركيب الصوتي للأحداث
- موافقة التركيب الصوتي للشخصيات
- تقويم الفصل
- تقويم الفصل الثاني

التوافق الصوتي ، و أسلوب السرد القصصي في القرآن

تمهيد :

إن المصغي لتلاوة القرآن تطرق سمعه أصوات منظومة نظماً موسيقياً ، يأسر النفوس ، ويثير الوجدان ، وذلك بما فيه من تقسيم منوع للحركات والسكنات ، يجدد نشاط السامع ، وتوزيع لحروف المد والغنة توزيعا " يساعد على ترجيع الصوت به ، وتهادي النفس فيه آنا بعد آن ، إلى أن تصل إلى الفاصلة الأخرى ، فيجد عندها راحته العظمى "(١) .

إن هذه الخاصية في الأسلوب القرآني تستهوي كل من ألقى إليه السمع ، حتى ولو كان من الذين لايعرفون لغة القرآن، لما يجد فيه من نغم متنوع تنوع موسيقى الوجود .

وهذه الخاصية هي التي جعلت الوليد بن المغيرة ، الذي عشق الفصاحة والبلاغة ، لايقدر على كتمان إعجابه بالقرآن ، على الرغم من كفره ، فيقول : " والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وانه ليعلو

---

(١) ـ د. محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ـ دار القلم الكويت ـ ١٩٥٧ ـ ص ١٠٣

ولا يعلى عليه "(١).

ان الموسيقى تقطر من كل حرف من حروف الأسلوب القرآني ، من كل عبارة من عباراته ، تنبع من داخل الكلمات ، ومن ورائها ، ومن بينها ، بطريقة محيرة ، ولذلك ، تضاربت آراء العرب في وصف القرآن ، وَعَمَّ اضطرابهم في تعيين مصدره ، فقالوا : إنه شعر ، لأنهم وجدوا في توقيعه هزة لا يوجد لها مثيل إلا في الشعر ، غير أنهم سرعان ما يغيرون الرأي ، حين يرجعون النظر فيه ، فيجدون أعاريضه ليست على أعاريض الشعر ، سواء في رجزه أم في قصيده ، ولا يجدون مخرجاً من هذه الحيرة إلا أن يسموه بالسحر(٢) ، لأنه ملك عليهم نفوسهم ، لكنهم لم يقفوا لهذا السحر على سر ، فظلوا على حيرتهم ولم يستقروا على رأي ، " فكانوا كلما وضعوا أيديهم على رأي وأرادوا أن يسحبوه على القرآن وجدوه نابيا عنه في ذوقهم "(٣).

وإذا كان القرآن الكريم في مجمله هذه هي سمات أسلوبه من

---

(١) ـ ابن هشام : السيرة ـ ص ٨٥

(٢)ـ هو قول الوليد بن المغيرة ، " فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ " المدثر ٢٤

انظر : ابن هشام : السيرة ـ ص ٨٥

(٣) ـ د. محمد عبد الله دراز ـ النبأ العظيم ـ ص ٦٨

من الناحية الصوتية والموسيقية ، فما هو حظ أسلوب السرد القصصي من هذه الناحية أيضا ؟.

يجيب الباقلاني قائلاً : إن " عجيب نظم القرآن وبديع تأليفه ، لايتفاوت ولا يتباين على مايتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها ، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام ، وإعذار وانذار ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها " (١) ، أي أن الأسلوب في السرد القصصي القرآني يتمتع بالخصائص نفسها التي أشار إلى بعض منها العرب القدامى ، من تأليف صوتي محكم ومعبر ، وموسيقى تستهوي النفوس وتقيد الأسماع .

وسيتضح لنا المقال من خلال الأمثلة التي سنعرضها وفق التقسيمات التي رأيناها توافق المقام ، مثل :

١- توافق الأصوات داخل الكلمة والجملة .

٢ ـ موافقة التركيب الصوتي للأحداث .

٣ ـ موافقة التركيب الصوتي للشخصية .

---

(١) ـ الباقلاني : إعجاز القرآن ـ ص ٣٦

١ ـ توافق الأصوات داخل الكلمة والجملة في السرد القصصي القرآني .

تتساند أصوات الحروف فيما بينها، في الكلمة الواحدة، أو الجملة، داخل أسلوب السرد في القصص القرآني ، لتؤلف نظماً موسيقياً متآلفاً تآلف القطعة الموسيقية داخل اطار المنظومة الواحدة المتكاملة ، فلا تنافر بين وحداتها ، ولا تعارض بين أجزائها ، حتى أن بعض الأصوات أو الحركات قد تكون ثقيلة في نفسها ، لسبب من الأسباب ، فإذا ضمّها الأسلوب السردي في القصص القرآني لأصوات أخرى ، " رأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان ، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي ، حتى إذا خرجت فيه، كانت أعذب شيء وأرقه ، وجاءت متمكنة في موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة "(١).

ونجد مثلا لما بينه الرافعي في قوله تعالى : " وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ "(٢) ، فإذا عزلنا كلمة " النُّذُرِ " عن السياق ، أحسسنا ثقلا في ضمة " الذال "(٣) ، لكونها تلي النون

---

(١) ـ مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ج ٢ ـ مطبعة : الاستقامة ـ القاهرة ـ ١٩٤٠ ـ ص ٣١٧

(٢) ـ سورة القمر : ٣٦

(٣) ـ الذال : وهي من أثقل الحروف استعمالا عند العرب لثقلها .

المضمومة ، فضلا عن نُبُوِّ هذا الصوت على اللسان على حدة ، لكن إذا وضعناها في السياق العام للإيقاع ، سواء على نسق الجملة ، أو في إطار السورة ، فإن هذا الصوت المتحرك يكون قد وقع الموقع الذي يتطلبه الاستخدام العام في الجملة والسورة في آن واحد .

وإذا أرهفنا السمع إلى الجملة ، ودققنا النظر في تركيبها الصوتي والحركي ، وجدنا قبل حرف الذال من كلمة " ٱلتُّذُرِ " حركات متتالية سريعة متحدرة نحو الفاصلة ، توهم حركتها بوقوع تنافر بين سرعتها (١) ، وثقل حرف الذال وحركته .

ولِكَيْلَا يقع هذا التنافر بين الحركتين ، وضعت في طريق الأولى فواصل تتكون من مد وسكون في كلمة " فَتَمَارَوْا " للتقليل من سرعتها ، حتى إذا بلغت لحظة الالتحام ، سارت بطيئة مع النون المضمومة التي حولت الحركة السابقة الى حركة مضمومة ، ليسهل التلاحم ، ويصير ثقل الصوت التالي مستخفّاً ، فيتم التلاؤم (٢) والتوافق .

إن تأليف الأصوات المكونة للتركيب اللغوي في القصص القرآني على هذا النحو ، يُمَكِّنُ الأسلوب السردي من الخروج في صورة

= انظر: السيوطي : المزهر - ج ١ - ص ١٩٥

(١) ، (٢) - انظر : الباقلاني : اعجاز القرآن - ص ٢٧

لفظية ، يسهل نطقها على اللسان ، ويحسن صداها في السمع .

ومن أمثلة التوافق الصوتي في أسلوب السرد القصصي كذلك ، ماجاء في قوله تعالى على لسان الهدهد : " وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ "(١) ؛ فلقد جاور السرد بين الكلمتين : " سبأ " و " نبأ " ، لتساويهما في حروفهما ، وتوازنهما في موسيقاهما ، حتى يعطي للأسلوب شكلاً أكثر توافقاً وانسجاماً ، وللمعنى عمقاً أبعد ، ودلالة أوسع ، ذلك أن الكلمتين ، سبأ ، ونبأ ، على الرغم من تكونهما من مادتين مختلفتين ، إحداهما مملكة ، والأخرى خبر ، فإنهما يتشاكلان من حيث أبعادهما العميقة ، لكون الأولى مملكة عظيمة تنطوي على الكفر ، وكون الثانية تحمل هذا الخبر الذي له شأن(٢) .

وكان يمكن أن توضع كلمة " خبر" مكان كلمة " نبأ " ويكون المعنى سليماً مفهوماً ، ولكن كما جاء في الآية أسلم وأصح ، لما في كلمة " نبأ " من الزيادة التي يطابقها وصف الحال .

---

(١) ـ سورة النمل : ٢٢

(٢) ـ النسفي : تفسير النسفي ـ ج ٣ ـ دار احياء الكتب العربية ـ ص ٢٠٨ ـ يقول : النبأ: هو الخبر الذي له شأن .

وهذا ما جعل المتلقي[١] لايجد فكاكا من أَسْرِ التماثل الصوتي المعنوي الذي تسلط عليه، وأنفذ فيه عوامله بوعي منه، أودون أن يدري، ولوأنه وجد تأليفاً آخر للأسلوب السردي، ليس على هذا السواء، لتخلّص من الخطاب القرآني، وتَفَصَّى عنه، ولَامْتَلَكَ حَجَاهُ وانصرف.

إنّ العرب كانوا يستحسنون هذا اللون من التركيب اللغوي، واستنوه في لغتهم، وأطلقوا عليه اسم: "المحاذاة"، وقد نجد لهذا المصطلح تعريفاً عند السيوطي في المزهر، إذ يقول: "وذلك أن تجعل كلاماً مَا بِحذاء كلام، فيؤتى به على وزنه لفظاً وإن كانا مختلفين"[٢]، وهومن جنس الكلام الذي سماه البلاغيون "البديع"، وقد حسن وبدع هاهنا لفظاً ومعنىً.

إن التوافق الصوتي في أسلوب السرد القصصي في القرآن، لاتخلو منه عبارة واحدة، سواء كان هذا التوافق من حيث قِرَانُ القريب بمثله، أوالمتداول بمثله، وذلك مراعاة لحسن الجوار والمناسبة، وزيادة في الائتلاف والتوفيق، فمثلا، في قوله تعالى على

---

(١) ـ مثل الوليد بن المغيرة ـ انظر:

ابن هشام: السيرة ـ ص ٨٥

(٢) ـ السيوطي: المزهر ـ ج ١ ـ ص ٣٣٩

لسان إخوة يوسف لأبيهم : " تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ "(١).

لقد أحدث السرد في هذه الآية مقاربتين متناسبتين صوتاً ومعنىً مقاربة صوتية، للكلمات المكونة للآية ، ومقاربة معنوية لفحوى هذه الكلمات ، حيث جيء بأغرب ألفاظ القسم ، وأقلها استعمالاً ، وهي التاء(٢) ، ثم جاورها بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، وهي " تفتأ " ، لتوافقها صوتاً وغرابة ، ثم أردفهما بأغرب ألفاظ الهلاك ، وهي " الحرض " ليتحقق التوافق والانسجام بين عناصر الاسلوب .

واقتضى هذا التوافق ، عقد قران بين لفظة وأخرى من جنسها في التركيب الصوتي ، وفي الغرابة ، " توخياً لحسن الجوار ، ورغبة في تآلف الألفاظ، لتتعادل في الوضع، وتتناسب في النظم(٣).

---

(١) ـ سورة يوسف : ٨٥

(٢) ـ إن المقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع ، لأن الشيء المتعجب منه لايكثر وقوعه ، ومن ثم قل استعمال التاء ، إلاّ مع اسم الجلالة ، لأن القسم بها أقوى القسم .

انظر : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ـ ج ١٣ الدار التونسية للنشر ـ تونس ـ ١٩٧٦ ـ ص ٤٤

(٣) ـ السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ـ ص ٣٢١ ـ نقلا عن : د. حفني محمد شرف : التصوير البياني ـ مكتبة الشباب ـ المنيرة ـ ط ٢ ـ ١٩٧٣ ـ ص ٤٤٥

إنَّ هذا الصنيع لمما يؤدي كذلك إلى التعبير عن المعنى أدق تعبير ؛ ذلك أن مطلب يعقوب عليه السلام ، وَأَمَلَهُ في عودة يوسف وأخيه ، كان غريباً في تلك الظروف التي كان يُعْتَقَدُ فيها أن يوسف أصبح محسوباً في زمرة الهلكى ، ولا أمل في وجوده ، فاقتضى هذا الأمل البعيد التحقيق ، رثاً يتناسب من حيث أسلوبه مع أمل يعقوب ، فجيء بأغرب الحروف والكلمات ، وأقلها استعمالا ، لتتناسب مع غرابة المطلب وقلة احتماله .

وبذلك استطاع القرآن أن يحقق التوافق والانسجام بين اللفظ والمعنى ، إزاء الاسلوب السردي في القصص التي يعرضها .

ولقد نجد هذا التوافق الصوتي ، كذلك ، بارزاً بشكل ملحوظ في الأسلوب الذي يعبر به عن الأحداث ، وكذا في الأسلوب الذي تتلفظ به الشخصيات .

٢ ـ موافقة التركيب الصوتي للأحداث في أسلوب السرد القصصي القرآني

لقد نقل إلينا السرد القصصي القرآني ألوانا من الأمثلة التي تصور وقائع الأحداث بالأصوات اللغوية ، وتجسد معانيها للمتلقي، إلى درجة يكاد فيها يرى الفعل ويحس به .

ومن هذه الأمثلة ما نقله إلينا السرد القصصي عن حادثة الطوفان، حيث شحنت الألفاظ والتراكيب التي عبر بها عن الحادثة، بإيقاع صوتي أكيد، يتوافق مع الطبيعة الثائرة الغضبى، حتى يخيل للمتلقي وكأن الجبال تندك ، والأرض تهتز ، والسماء ترتج لهول الحدث ، " فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً ، فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ "(١) .

لقد تآزرت مع المعنى تلك الأصوات التي تنبعث من الراء ذي الصوت الطارق المتكرر(٢) المرافق للأحداث ، لتحاكي صوت

---

(١) سورة القمر : من الآية ١٠ الى الآية ١٤

(٢) ـ الراء : صوت مجهور مكرر ، تكون الحركة فيه بمنزلة حركتين : لمزيد من الاطلاع انظر :

د . تامر سالم : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ـ دار الحوار للنشر : اللاذقية سورية ـ ط ١ ـ ١٩٨٣ ـ ص ص ١٦ ، ٢٤ ، ٢١

الطبيعة الهادرة ، ولتجسد قصف الرعود وهدير المياه ، وتعكس صورة الإعصار الشديد الذي ضرب قوم نوح ، وحول العمران إلى خراب .

ان التركيب الصوتي داخل هذا الاسلوب المعبر عن الحادثة ، قد تمكن من نقل صورة صوتية للمتلقي ، معبرة عن جلال الحدث وعظمته ، ولم يتراخ هذا التركيب في نقله لهذه الصورة ، ولم يفقد شحنة الانفعال بأحداثها ، حتى لاتتخلخل البنية ، ويختلف إيقاع الرد عن إيقاع الأحداث .

ولقد كان هذا الإيقاع الصاخب ينقض على أسماع قريش ، فيقرع نفوسهم ، ويصخ آذانهم ، ويصعق قلوبهم ، ويؤثر على حسهم ، فيتضاعف لديهم الأثر النفسي ، وتشتد مخاوفهم من أن يحدث لهم مثل ماحدث لقوم نوح (١) .

وهذه هي وظيفة الأسلوب الفني ، فإنه يؤدي مايؤديه الكلام عادة ، وهو إبلاغ محتوى الرسالة ، كما يسلط في الوقت نفسه على المتلقي تأثيراً ضاغطاً ، ينفعل به للرسالة المبلغة .

ان المتمعن في الأساليب التي تصور الأحداث المنذرة بالغضب

---

(١) ـ د. محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم ـ ص٢٢١

ليجد ها كلها توظف " الألفاظ التي لها جرس و صوت وصورة "[١] .
يقول تعالى ،مثلا : " وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ "[٢] .

ان أدوات الصفير كلها جندت في هاتين الآيتين على مختلف صنوفها ، من الصاد ، والسين ، والزاي ، وذلك لتسهم في رسم الجو الحدثي الذي أوقعته الرياح في القوم .

لقد تماندت هذه الأصوات وتآزرت، فأصبح المعمار الفني للآيتين يجلجل بصوت الريح ، وينذر بعقاب شديد ، ويرسم صورة صوتية معبرة عن وقائع الحادثة الأليمة التي ألمت بقوم عاد ، حتى كأن السامع يكاد يبصر تلك الوقائع ، فيرى الريح التي تقتلع تلك الأجسام الضخمة ، وترفعها الى السماء ، لتلقي بها جثة هامدة خاوية من الروح ، كخواء جذوع النخل من اللباب ، بل يسمع صرير الرياح،واصطفاق الخيام وأعجاز النخل ، وصورة الأرض الخراب[٣].

---

(١) ـ مصطفى محمود : القرآن ، محاولة لفهم عصري ـ ص١٨

(٢) ـ سورة الحاقة : ٦ ـ ٧

(٣) ـ مصطفى محمود : القرآن ، محاولة لفهم عصري ـ ص ١٨

والفكر اللغوي القديم ، متمثلا في ابن جني ، يرى بأن واضعي اللغة " كثيرا مايجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها ، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها " (١) .

ان جلال الحادثة لم يؤثر على جمال الاسلوب وموسيقاه ، بل عبر عن الحادثة ببناء رائع ، تمتزج داخله المعاني مع الموسيقى ، وتتجانس في ثناياه الأصوات ، فيحسن جرسها ، ويطيب إيقاعها .

ومن الأمثلة التي يبرز فيها التوافق والانسجام بين التركيب الصوتي في الأسلوب وبين الأحداث ، مانجده متمثلا في قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام : " وَيَا قَوْمِ، أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " (٢) .

---

(١) ـ ابن جني : الخصائص ـ ج ٢ ـ تحقيق : محمد علي النجار ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ص ١٥٧

وانظر : السيوطي : المزهر ـ ج ١ ـ ص ص ١٤ ، ١٥

وراجع : Ferdinand de SAUSSURE : Cours de Linguistique Générale publié par : Charles BALLY- et Albert Sechehaye Payot-Paris 1962.P. P. 97-103.

حيث يرى "دي سوسير" رأيا مخالفا ؛ من حيث عدم تطابق الدال والمدلول .

(٢) ـ سورة هود : ٨٥ .

لقد اعتمد السرد في هذه الآية الكريمة تركيباً مزدوجاً، أحد التركيبين صرفي، تتداعى فيه الأوزان وتتعانق، لتشكل نسقاً متناسباً، حيث تستدعي لفظة المكيال، لفظة الميزان لتوافقهما، وتطابق وزنيهما.

وثاني التركيبين صوتي، له فضل الإسهام في توضيح المعنى وتحديده. ولقد تضافرت الأوزان والأصوات لتشترك جميعا في تحديد معنى الآية؛ ذلك أننا إذا ترجمنا إشارات الأصوات إلى دلالات، فإننا نجد أصوات الصفير التي ترافق المستوى الدلالي بصفة متتالية(١)، تقوم بوظيفة منبه يوقظ حواس المتلقين، ويقرع أسماعهم، ليستمروا في الانتباه والاستماع. كما نجد التركيب الصوتي المكون لكلمات هذه الآية، يدل بصفة طبيعية على مدلول تلك الدوال؛ فحرف الخاء مثلا: يوحي بقبح الأعمال التي كان ينهى شعيب قومه عنها، وحرف الشين، يومئ(٢) إلى تفشيها في الناس واتساعها، بينما حرف التاء(٣) يدل على انتشارها. وختم مقطع الفاصلة

---

(١) ـ يرى ابن جني أن المثال المكرر قد جعل للمعنى المكرر.
انظر: ابن جني: الخصائص ـ ج ٢ ـ ص ١٥٣

(٢) ـ الشين: للتفشي.

(٣) ـ التاء: للنفث والبث.

بالنون العاطفية التي تنعي عليهم فعلهم ذلك ، وتشفق عليهم من عقاب أليم ، إنّهم لم ينتهوا عن إفسادهم في الأرض (١) .

وهكذا ، فقد تمكن السرد من الربط بين سبال الضفيرة الأسلوبية في هذه الآية ، بمدى صوتي ، استثار منه طاقته الايحائية ، وحولها إلى لحمة تجمع بين الصوت والمعنى ، وتشكل البناء الذي يكشف الأسرار الدلالية ويبوح بها بعد ذلك .

= (٢) ، (٣) انظر : ابن جني : الخصائص - ج ٢ - ص ١٦٣

(١) - ختم مقطع الفاصلة بحرف مد ونون ، حكمته وجود التمكن من التطريب بذلك . انظر :

الزركشي : البرهان في علوم القرآن - ج ١ - ص ٦٨

٣ ـ موافقة التركيب الصوتي للشخصية في أسلوب السرد القصصي القرآني

مما لاشك فيه أن لكل شخصية أسلوبها الخاص بها في الحديث ، وفي صوغ العبارات والتراكيب ، كما لكل منها بصمة تختلف بها عن غيرها ، أو نبرة صوتية لاتختلط بنبرة أصوات الآخرين ، ولذلك يكون الأسلوب كأنه " بصمات تحملها صياغة الخطاب ، فتكون كالشهادة التي لاتمحى "(١).

ان الشخص " مادام يعبر عن نفسه وفرديته ، فانه لايستطيع أن يتحاشى الابانة عن أسلوبه ، مهما حاول غير ذلك "(٢) ، لأن الكيفية التي يصوغ بها خطابه تحمل موسيقاه الخاصة ، التي تعدُّ دليلاً على ما في نفسه ، وترجماناً على مشاعره ، تسمع " فقط ، عندما تثار أمواج العاطفة ، أعني أن سمات النفس تهب على سطح الأسلوب ، فتبعث فيه حركة منتظمة تختلف في سرعتها أوشكلها "(٣) ، وفي ايقاعها ، مابين شخص وآخر ، وما بين حركة عاطفية وأخرى .

---

(١) ـ د . عبد السلام المسدي : النقد والحداثة ـ ص ٥٦

(٢) ـ د. رشاد رشدي : مختارات من النقد الأدبي الحديث ـ مطبعة العلوم ـ مصر ـ ١٩٥١ ـ ص ٨٨

(٣) ـ نفسه : ص ٨٨

والسرد القصصي القرآني قد نقل الينا صوراً عن هذه الصفات الأسلوبية التي تتماشى فيها حركة الأسلوب مع حركة العاطفة، فسيدنا نوح عليه السلام ، مكث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاما يدعوهم فيها إلى عبادة الله ، لكن دعوته لم تزدهم إلا فراراً ، ووصل بهم الأمر إلى أن يستغشوا ثيابهم ، حتى لايستمعوا إلى قوله، مما جعله ييأس بعد هذه المدة الطويلة التي قضاها في الدعوة ، دون أن تأتي أكلها ، فيمتلئ صدره غيظا ، ويتوجه إلى ربه يشكو قومه ،ويدعوه أن يسلط عليهم عذابه . فيقول : " رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً "(٢) .

وبعد عرضه لما بذله من جهد في سبيل الدعوة التي لم تثمر ، تنفجر نفسه عن دعاء مجلجل ، كأن أصواته قصف رعد يصك الآذان ، أوهدير إعصار يحل بالأرض يعلن الخراب والدمار،

---

(١) ـ د . صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ص ٣٢٩

(٢) ـ سورة نوح : ٥ ، ٦ ، ٧

"رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ، وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا" (١) .

لقد جندت في دعائه الموسيقى الداخلية ، مع موسيقى الفواصل (٢) ، وتضافرت على إصدار صدى تلك العاطفة المتأججة في نفس نوح . ومما حقق تواؤم تلك الموسيقى مع الحالة النفسية للشخصية ، ورود صوت الراء في آخر الفاصلة مشبعاً ، يمتد صداه مع نَفَسِ المد الذي يستمر بعد مضي نفس الصوت ، وكأن المتكلم يتخفف من أثقال تنقض ظهره ، ويفرغ عن طريق الْمَدِّ مَا عَانَاهُ من قومه طوال تلك المدة التي قضاها بين ظهرانيهم ، يدعوهم إلى الله .

وهكذا فقد استطاع الأسلوب في هذا الحدث أن يعبر تعبيراً فنياً عن مشاعر هذه الشخصية النبوية ، وأن ينقل للمتلقي صورا حسية منها ، فجاءت الأصوات والكلمات في هذه الحالة معبرة موحية ، تدل بجرسها وبمعناها على ما تحمل من نزعات

---

(١) ـ سورة نوح : ٢٦ ، ٢٧

(٢) ـ الفواصل : جمع فاصلة ، وهي كلمة آخر الآية ، كقافية الشعر وقرينة السجع .

انظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن ـ ج ١ ـ ص ٥٣ وما بعدها

نفسية خاصة بهذه الشخصية في لحظة إثارة عاطفتها.

ولما كان الاسلوب هو التعبير عن المعنى المتمثل في النفس، ولما كان الرجل هو أسلوبه، حق للأسلوب أن يأتي متبعا بموسيقى لفظية ملائمة لخلجات النفس، ومطابقة لصورتها (١).

وانطلاقا من هذا المفهوم، نقف مع لون آخر من الأساليب التي تبدو فيها نعمات النفس أشد وضوحاً، وأكثر بروزاً، فنتعرف إلى مناجاة "زكريا" عليه السلام، لربه، وهو في المحراب متأجج العاطفة، متهدج الصوت، يشكو الى ربه حزنه وأساه، وخوفه من انقطاع عقبه، فيقول: "رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي، وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً" (٢).

إن هذا النغم الصاعد إلى الله من خلال هذه المناجاة، "ليثير بكل لفظة صورة، وينشيء في كل لحن مرتعا للخيال

---

(١) ـ د. رشاد رشدي: مختارات من النقد الأدبي المعاصر ـ ص ٨٨

وانظر كذلك، أحمد الشايب: الأسلوب ـ ص ١٢١

(٢) ـ سورة مريم: ٤، ٥، ٦

فسيحاً "[١] . فيتمثل المتلقي هذا النبي وهو يرتل هذا الدعاء شيخاً وقوراً ، انحنت ظهرُه لثقل السنين، وابيض شعره لكبر الجديدين ، وخلا فراشه من البنين والبنات ، فتوجه إلى ربه وهو قائم يصلي في المحراب بدعاء خفي، تتجلى فيه لوعة الإنسان المحروم ، وإيمان الصديق الصفي ، ويحس بصدى تلك النفس الضعيفة ينبعث من الياء المشددة المنونة التي كان ينحط عندها زكرياء حمولة نفسه ، والتي صارت عند الوقف ألفا لينة، صادفت اللفظة "خفيّاً" ، فتضافرت معها، لتزيد الدعاء ليونة ونعومة .

ويمكننا القول، بأن التوافق الصوتي الدلالي في هذه المناجاة، كان وليد التوافق المعنوي داخل نفس زكرياء ، فخضع النظم للموقف الانفعالي والقيم الشعورية ، واقتفى آثار المعاني في النفس[٢].

ان العرب حقا ، كانت تناسب في كلامها بين الألفاظ ومعانيها، " فجعلت الحرف الأضعف فيما، والألين والأخفى ، والأسهل والأهمس ، لما هو أدنى وأقل وأخف عملا أو صوتاً ، وجعلت

---

(١) ـ د. صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ـ ص ٣٢٨

(٢) ـ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ـ ص ٩٣

الحرف الأقوى والأشد ، والأظهر والأجهر ، لما هو أقوى عملا وأعظم حقا "(١) .

والسرد القصصي في القرآن عبر بأسلوبه عن الأحداث ، ومشاعر الشخصيات ، بطرق تتناسب فيها الألفاظ بمدلولاتها ، والأصوات بمعانيها ، والعبارات بمفاهيمها ، حتى أن المتلقي يكاد يفقه المعنى المراد ، بمجرد سماعه للأصوات ، لما تتميز به من تناسق وتناسب بين جرسها ومعناها .

ان الايقاع الصوتي و التناسق الفني ، في السرد القصصي ، يؤدي دوره كاملا غير منقوص ، يلين ويشتد ، يهدأ ويهيج ، ينساب انسيابا كالماء ، أو يعصف عصفا كالريح الصرصر ، وفق المقام ، وحسب تقلبات الشخصيات .

ولا عجب ، إذا كانت هذه هي الخصائص الصوتية في السرد القصصي ، ذلك أن القرآن الكريم نزل في أمة تسمع اللغة أكثر مما تكتبها وتقرأها ، ولذلك روعي فيه من سمات الفن المسموع ما يبهر ، حين يلقي اليه المتلقي السمع ، ولأمر ما ، قال تعالى : " وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ

---

(١) ـ السيوطي : المزهر ـ ج ١ ـ ص ٥٣

عَلَى مُكْثٍ" (١)، ولأمر ما كذلك، قال: "وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً" (٢)، ذلك أن القرآن وعاؤه الصوت والكلمة، والكلمة فيه لا تتجرد من الموسيقى، لاسيما وأن المتلقي هو الأمة العربية التي تتميز بصناعتها للشعر، والتغني به في الوحدة والاجتماع.

---

(١) ـ سورة الاسراء: ١٠٦

(٢) ـ سورة المزمل: ٤

تقويم الفصل الرابع

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

إن الأصوات في إطار كل من الكلمة أو الجملة ،في السرد القصصي القرآني ، تتآلف فيما بينها ، وتنتظم بصورة موسيقية تُيَسِّرُ كلاً من التلاوة والإنصات .

لقد وزعت الحركات والسكنات توزيعا يتجدد له نشاط السامع، وحدث ذلك أيضا لحروف المد والغنّة ، مما أنتج ترجيع الصوت ، وتهادي النَّفَس ، إلى أن يبلغ آخِر الفاصلة ليستقر عندها .

لقد لاحظنا أيضا توافق الأصوات مع الأحداث التي عبرت عنها ونقلتها ، حيث استطاعت تجسيد معاني تلك الأحداث للمتلقي، وإخراجها في صورة صوتية معبرة ، حتى كأنه يراها ويحس بها ،كمثل ما وجدنا في حادثة الطوفان ، أو واقعة عقاب قوم هود،أو غيرهما من الأمثلة .

وفيما يتصل بتوافق الصوت في أسلوب السرد القصصي في القرآن مع الشخصية الناطقة به ، والمعبرة به عن أحاسيسها ، فقد لاحظنا أن خصائص هذه الشخصية تنعكس على الأصوات المؤدية لمضامينها ، حيث كانت هذه الأصوات وَجْهاً من التعبير ، يماثل ما تريد الشخصية أن توصله لنا بالفعل .

- تقويم الباب الثاني -

أوقفتنا دراستنا لأسلوب السرد القصصي في القرآن ، من حيث التعبير اللغوي ، في عرضنا لهذه الدراسة ، على صفحات الفصول الأربعة السالفة ، على أن الحدث لايأخذ صفته السردية القصصية إلا وقد تلبس بأحرف اللغة ، وأخذ مقوماتها المختلفة المناسبة لطبيعته ، حتى يمكنه أن يحل من النفس البشرية محلاً يراد له من قِبَلِ فاطرِ الأحداث واللغة ومستودعاتها ، في رؤوس المتلقين .

وهكذا يكون للإيجاز محله ، وللبسط مقامه ، فالإيجاز لدواع من العجلة المحتومة ، أولمقام ينوب فيه الإيحاء دون التمطيط والإطناب . والبسط يكون في موقف يراد به تمديد الآلاء ، مثلا ، فإحصاء الأنعُم توطئة لما يعقبها من نكال ، وهكذا .

وتسخر اللغة العقل في المتلقي ، لربط مفاصل الجملة بصورة لاتلغي وظيفة حروف العطف ، ولا تهون منها ، أوتضع واحدها في موضع لايستقيم إلاّ لآخر.

ولقد كشفلنا الدّرس عن أساليب النحوفي ضبطها للظاهرة

اللغوية ، وكذا مسؤوليتها عن تحقيق أسلوب السرد القصصي في القرآن ، من الوجهة اللغوية.

وأكبر مثال على ذلك ، أسلوب التوكيد الذي يقع في السرد مداولة بين الأنبياء المبشرين ، وبين الكفار المكذبين ، وتتنوع أداته وفق الحالة المؤكدة ، على أن اللغة تكون مظهراً أكيداً لأسلوب السرد القصصي في القرآن ، من حيث أداؤها الصوتي الذي تجمعت فيه الأحرف والكلمات والجمل ، بل الشخصية المكتوبة والأحداث ، إذ برهن الصوت على أنه يوافق مادة حدثه ويماثلها، على نقيض ما توهم " دي سوسير " ، كما برهن الصوت على أنه كان قوام رسم لغة الشخصيات في اختلافها ، وفق الفروق الفردية القائمة بين بني الانسان .

الخاتمة

خـــاتمـــة .

xxxxxxxxxxxxxxx

مما سبق كافة ، تبين لنا بالتدرج ، أن ما قدمناه من فرض في المقدمة ، سعيا إلى تحققه في بابين مكونين من سبعة فصول ، هي تحقيق للفرض .

أبان نقاش الحدث في الفصل الأول أنه جرى على عاكلة من الاعتياد ، تتجه إلى الإعجاز وإلى كسر الناموس ، لإظهار ربوبية الله ، ومنزلة رسوله أونبيه ، وفساد المناوئين ، كما أن شطراً من هذا الحدث تتقدمه نبوءة يرهص بتحققها السرد ، وتختتم بإنجازها .

ومسرح الحدث لايكون غفلا في كثير من الأحيان من الزمان أوالمكان ، لتستتم إضاءة الحدث عند المتلقي ، وتثبت أركانه ، وتتم به الإبانة ، ونيابة السرد عن الحدوث .

وفي نقاش الشخصية التي تحمل الحدث إلى أحيازالتحقق والحدوث ، استكشفنا أن بناء الشخصية تتكامل له أبعادها المختلفة ، من جسمانية ونفسية واجتماعية ، وهي تلك الأبعاد التي تؤهلها للمتلقي ، وتمكنه من تمثلها ، واستبطانها ، واستظهارها ، وهذه الشخصية قد تكون صالحة هادئة مطمئنة ،

أوشريرة قاتلة دموية معتدية ، كما أنها بالمقابل ، تكون انبساطية أوانطوائية ، وهي في ذلك كله لون من الشخصية الدائرية ، دون المسطحة أوالنمطية ، إضافة إلى أنها لايمنح فيها الدور لشخصيات محورية فحسب ، بل تتعداها الى النكرات والشخوص الثانوية التي قد تكون من الطيور أوالنبات أوالجماد أوالحيوان ، وجملتها مما يشد في صيرورته عضد الشخصية المحورية، في ارتفاعها بالحدث إلى الذرى، وإلى خطوطه الدرامية الفاصلة .

وفي الصراع تبين لنا أنه مبني على أسس من بناء الشخصية وأبعادها المختلفة ، ومقدماتها الأساسية ، ومعتقداتها ، وأنه من اللون المتدرج الذي يدفع بالحدث خطوة خطوة، دون أن يكون من اللون الساكن الذي لايريم عن نقطة البدء ومقدماته ، كما أنه ليس كذلك من النوع الواثب الذي لاينبني على التسلسل أو وصل الحلقات بعضها ببعض ، في تطلبه الذرى والقرار، ثم الحلول .

إن هذا الصراع يبدأ فكريا، ويتوسط بالنزاع النفسي، ثم يختتم بالصراع المادي الذي تدخله جنود الطبيعة .

وهـولامحالة مختتم بانتصار الخير ودحر الباطل ، فالأنبياء يضربون وفي معيتهم عناية الله ورعايته ، وبذلك يأخذ الصراع في هذه الصورة بعد تدرجه الكامل ، الشكل الانقلابي ، الذي ناقشناه في الفصل الأول ، حيث يخرق الناموس ، ولا يستسلم للقاعدة .

لقد كان نقاشنا في الباب الأول بحثا عن السرد في الحدث، ولقد اتضح أن الحدث وجه لهذا السرد ، فالحدث هو مادة التتالي على وسائط من المكان والزمان ، والشخوص ، محمولة بالصراع وبنتائجه ، التي هي لها نظام خاص نألفه بالتدريج، هو ما أسلفناه من بلوغ الى المعجزة ،وتدمير الباطل والمبطلين بإثمهم ، فيما سماه الكفار أساطير الأولين . وهي السرد الذي فتنوا به ووجدوا أعلاه مثمرا ، وأسفله مغدقا ، وفي قوله حلاوة ، وعليه طلاوة ، .(١)

وفي نقاش السرد من حيث اللغة ، تبين لنا أن اللغة هي الحامل المناسب ، والشارة الصالحة لسرد الأحداث على شاكلتها السالفة ، فاللغة أحيانا مفصلة حين يكون ثمة حتم

---

(١)ـ ابن هشام:السيرة ـ ص ٨٥

بالاستعمال والتداول .

ان الأصوات في الحروف في هذه اللغة المستعملة في السرد القصصي في القرآن ، كما تبينا ، ليوافق فيها الدال المدلول ، ولا يتجافى معه ، ولا يجادله ، بل يحمل جهارته ان كان مجهورا ، أو همسه ان كان مهموساً ، أوصفيره ان كانت له طبقة الصفير ، أولينه ان امتد ليسمع البعيد بأحرف اللين ، وهكذا .

مـــراجـع مختلفـــة

ـ أبـاظـة ثـــروت :

السرد القصصي في القرآن الكـريـم ـ دار نهضـة مصـــر للطبـاعـة والنشـر ـ القـاهـــرة ٠

ـ ابن الأثيـر ، ضيـاء الديـن :

المثـل السائر في أدب الكاتب والشاعـر ـ تحقيق : د٠ أحمد الحوفـي ، د٠ بدوي طبانـة ـ دار الرفاعـي ـ الرياض ـ ط ٢ ـ ١٩٨٣ ٠

ـ الإسـكـافـي ، الخـطيب :

درة التنـزيـل وغـرة التـأويـل ـ بروايـة : أبي الفـرج الأرسـتانـي ـ دار الآفاق الجـديدة ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨١ ٠

ـ إسـمـاعيل ، عزالديـن :

الأسـس الجمالية في النقد العربي ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٧٤٠

ـ أميـــن ، بكـــري الشيـخ :

التعـبير الفني في القـرآن ـ دار الشروق ـ بيروت ، القاهرة ـ ط ٤ ـ ١٩٨٠ ٠

ـ الأنبـاري ، كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمـد بن أبي سعيد الانصاف في مـائل الخـلاف ، بين النـحويين البصريين والكـوفيين ـ المكتبـة التجـاريـة ـ مصر ـ ط ٤ ـ ١٩٦١ ٠

- الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب :
اعجاز القرآن - تحقيق : السيد أحمد صقر - دار المعارف - بمصر - ط ٢ .

- بدوي ، عبد الرحمن :
دور العرب في تكوين الفكر الاروبي - وكالة المطبوعات - الكويت
دار القلم - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٩ .

- بدوي ، عبد الرحمن :
مناهج البحث العلمي - وكالة المطبوعات - الكويت - ط ٣ - ١٩٧٧ .

- بلاشير ، ريجيس :
تاريخ الأدب العربي - ترجمة : د . ابراهيم الكيلاني -
ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ١٩٨٨ .

- بناني ، محمد الصغير :
النظريات اللسانية والبلاغية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين -
ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ١٩٨٣ .

- بهجت ، احمد :
قصص الحيوان في القرآن - دار الشروق - ط ١ - ١٩٨٣ .

- التفتازاني ، مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدين :
شرح السعد ، المسمى : مختصر المعاني في علوم البلاغة -
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - مطابع المدني ، شارع العباسية
القاهرة .

ـ جاد المولى ، محمد أحمد :

قصص القرآن ـ دار الفكر للنشر والتوزيع ـ عمان ـ الأردن ـ ١٩٧٨ .

ـ الجرجاني، عبد القاهر:

دلائل الاعجاز ـ تحقيق وشرح : محمد عبد المنعم خفاجي ـ مطبعة الفجالة الجديدة ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٦٩ .

ـ ابن جعفر ، قدامة :

نقد النثر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٢ .

ـ أبو جندي ، خالد أحمد :

الجانب الفني في القصة القرآنية ، منهجها وأسس بنائها ـ دار الشهاب ـ باتنة ـ الجزائر .

ـ ابن جني ، أبو الفتح عثمان :

الخصائص ـ تحقيق : محمد علي النجار ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

ـ حسن ، غازي :

مناهج البحث ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ الأسكندرية ـ ١٩٨٤ .

ـ حفني ، عبد الحليم :

أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ط ٢ ـ ١٩٨٥ .

- الحمـــوي ، يـاقـــوت :
معجـم البـلدان - دار بيروت للطباعـة والنشر - ط ١ - ١٩٥٧ .

- الخطيب ، ابـراهيـم :
نـظريـة المنهج الشكلي ، (ترجمـة) ، مـؤسـسـة الابحـاث العـربيـة - بيروت - ط ١ بالعربيـة - ١٩٨٢ .

- خـلف اللـه ، محمد أحـمـد :
الفـــن القصصي في القـرآن الكـريـم - مطبعـة الأنجـلو المصرية - القـاهـرة - ط ٢ - ١٩٦٥ .

- دراز ، محـمـد عبد اللـه :
النبـأ العظيـم - دار القـلـم - الكـويت .

- الـرازي :
مختار الصحـاح - مكتبـة لبنان .

- الـرافـعي ، مصطـفـى صـادق :
تاريـخ آداب العـرب ج - مطبـعـة الاستقـامـة - القاهرة - ١٩٤٠ .

- ابـن رشـد :
فـصـل المقـال - تقـديـم وشـرح : د. أبوعـمران الشيـخ ، والاستاذ جلول البدوي - الشركـة الوطنيـة للنشر والتوزيـع - الجزائر .

- رشـدي ، رشـاد :
فن القصـة القصـيرة - دار العودة - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٥ .

- رشـــدي ، رشـاد :

مختـــارات من النـقـد الأدبـي المـعاصـر - مـكـتبـة الأنجلو المصريـة - ١٩٥١ .

- ريـتشـارد س . لازاروس :

الـشخصـيـة - ترجـمـة الدكتـور سـيـد محـمد غـنيـم ، مراجعـــة الدكتور محمـد عثمانـي - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ١٩٨٥ .

- الزركـشي ، بدر الديـن محـمد بـن عبد اللـه :

- البرهـان في علـوم القـرآن - تـحـقيـق : محـمد أبـو الفـضل ابراهيم دار احياء الكتب العربيـة .

- زغـلول ، سـعـد :

- تاريـخ العرب قـبل الاسـلام - دار النهضة العـربيـة - بيروت - ١٩٧٦ .

- زكـي ، أحـمـد كـمال :

دراسـات في النقـد الأدبـي ، دار الاندلس - ط٢ - ١٩٨٠ .

- سـالـم ، عبد العزيز :

تاريـخ العـرب قبل الاسـلام - مؤسـسـة شباب الجـامعة - الأسكندرية

- سـعـد الديـن ، ليلى حـسـن :

كليـلة ودمنـة في الأدب العربـي - دار المـعارف للـطباعـة - دمشق .

- الـسـكاكي ، يـوسف بـن أبي بكـر محـمد بن علـي :

مفتاح العلـوم - دار الكتب العلـمـيـة - بيـروت .

- سلوم ،تامر:
نظرية اللغة والجمال في النقد العربي - دار الحوار للنشر والتوزيع - اللاذقية - سوريا - ط ١ - ١٩٨٣ .

- السيوطي ، جلال الدين :
لباب النقول في أسباب النزول - الدار التونسية للنشر - تونس ط ٣ - ١٩٨٤.

- السيوطي ، جلال الدين :
المزهر في علوم اللغة وأنواعها - شرح وضبط وتصحيح وتعليق : محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبوالفضل ابراهيم دار احياء الكتب العربية .

- السيوطي ، جلال الدين :
اتمام الدراية لقراء النقاية - المطبوع على هامش : مفتاح العلوم ، للسكاكي - دار الكتب العلمية - بيروت.

- الشاروني ، يوسف :
دراسات في الرواية والقصة القصيرة - مطبعة الانجلو المصرية ١٩٦٧ .

- الشايب ، أحمد :
الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية - مطبعة النهضة المصرية - القاهرة - ط ٦ - ١٩٦٦ .

- شرف ، حفني محمد :
التصوير البياني - مكتبة الشباب - المنيرة - ط ٢ - ١٩٧٣ .

- الشعراوي ، محمد متولي :
كتيب تفسير سورة الأعلى . الغاشية . الفجر - مكتبة القرآن - ١٩٧٩ .

- الشعراوي ، محمد متولي :
معجزة القرآن - (كتاب اليوم) دار الكتب والوثائق القومية - ١٩٨٢ .

- الصالح ، صبحي :
مباحث في علوم القرآن - دار العلم للملايين - بيروت - ط ٧ - ١٩٧٢ .

- الطاهر ، علي جواد :
مقدمة في النقد الأدبي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط ١ - ١٩٧٩ .

- طبارة ، عفيف عبد الفتاح :
مع الأنبياء في القرآن - دار العلم للملايين - بيروت - ط ٨ - ١٩٨٠ .

- طبانة، بدوي :
قضايا النقد الأدبي - مكتبة الانجلو المصرية - ١٩٨٤ .

- طحان ، ريمون :
الألسنية العربية (٢) - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط ٢ - ١٩٨١ .

- عامر ، فتحي أحمد :
المعاني الثانية في الأسلوب القرآني - منشأة المعارف - الأسكندرية - ١٩٧٦ .

- عبد الباقي ، محمد فؤاد :
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - دار الحديث - القاهرة ط ١ - ١٩٨٧ .

- عبد ربه ، عبد الحافظ :
بحوث في قصص القرآن - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط ١ - ١٩٨٢ .

- العسكري ، أبو هلال :
الصناعتين - مطبعة محمود بك - الاستانة - ١٣١٩ .

- الغزالي ، محمد :
نظرات في القرآن - دار الشهاب - باتنة - الجزائر .

- الفارابي ، أبو نصر :
المدينة الفاضلة ، و مختارات من كتاب الملة - طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية - ١٩٨٧ .

- فرويد ، سيجموند :
معالم التحليل النفساني - ترجمة : د . محمد عثماني - دار النهضة العربية - القاهرة - ط ٤ - ١٩٦٦ .

- ابن قتيبة ، :
تأويل مشكل القرآن - شرح ونشر : السيد أحمد صقر - المكتبة العلمية - بيروت - لبنان - ط ٣ - ١٩٨١ .

- القرطاجني ، أبو الحسن حازم :
منهاج البلغاء وسراج الأدباء - تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة دار الغرب الاسلامي - بيروت لبنان - ط ٢ - ١٩٨١ .

- قصار ، الشريف :
معاني الحروف في القرآن الكريم - المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر - ١٩٨٤ .

- قطب ، سيد :
التصوير الفني في القرآن - دار الشروق - بيروت - القاهرة ط ٧ - ١٩٨٢ .

- قمحاوي ، محمد الصادق :
الايجاز والبيان في علوم القرآن - مكتبة عالم الفكر - القاهرة .

- الكلاعي ، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور ، الملقب :
بذي الوزارتين :
احكام صنعة الكلام - تحقيق : محمد رضوان الداية - دار الثقافة
بيروت - ١٩٦٦ .

- ابن الكلبي ، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي :
الأصنام - تحقيق : الأستاذ أحمد زكي باشا - دار الكتب
المصرية - القاهرة - ط ٢ - ١٩٢٤ .

- لاجوس ، اجري :
فن كتابة المسرحية - ترجمة : دريني خشبة - مكتبة
الانجلو المصرية .

- المبارك ، محمد :
دراسة أدبية لنصوص من القرآن - دار الفكر - بيروت .

- المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد :
الكامل - دار الفكر - بيروت .

- محمود ، مصطفى :
القرآن ، محاولة لفهم عصري - دار المعارف - القاهرة - ط ٤ .

- مرتاض عبد الملك :
النص الأدبي ، من أين ؟ والى أين ؟ - ديوان المطبوعات
الجامعية - الجزائر - ١٩٨٣ .

- المرزوقي ، سمير ، و شاكر جميل :
مدخل الى نظرية القصة - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر .

- المسدي ، عبد السلام :
الاسلوبية والأسلوب - الدار العربية للكتاب - ط ٢ - ١٩٨٢ .

- المسدي ، عبد السلام :
النقد والحداثة - دار الطليعة - بيروت - ط ١ - ١٩٨٣ .

- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي :
مروج الذهب ومعادن الجوهر - دار الكتاب اللبناني - بيروت
ط ١ - ١٩٨٢ .

- المليجي ، حلمي :
علم النفس المعاصر - دار المعرفة الجامعية - ط ٥ - ١٩٨٣ .

- ابن منظور :
لسان العرب - دار صادر دار بيروت .

- مهران ، محمد يوسف :
دراسة تاريخية من القرآن الكريم (في بلاد العرب) - مطابع
جامع الامام محمد بن سعود الاسلامية - ١٩٨٠ .

- موسى ، محمد يوسف :
القرآن والفلسفة - دار المعارف - مصر - ط ٣ - ١٩٧١ .

- ناصف ، مصطفى :
مشكلة المعنى - مكتبة الشباب - القاهرة ط ١ - ١٩٧٠ .

- ابن نبي ، مالك :
الظاهرة القرآنية - ترجمة : عبدالصبور شاهين - دار الفكر دمشق - ١٩٨٥ .

- النجار ، عبد الوهاب :
قصص الأنبياء - دار الفكر - بيروت - لبنان .

- نجم ، محمد يوسف :
فن القصة - دار الثقافة - بيروت .

- نقرة ، التهامي :
سيكولوجية القصة في القرآن - الشركة التونسية للتوزيع تونس - ١٩٧٤ .

- الهاشمي ، أحمد :
جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع - دار الفكر بيروت - ط ١٢ - ١٩٧٨ .

- الهاشمي ، عبد الحميد محمد :
لمحات نفسية في القرآن الكريم - نشر وتوزيع مكتبة رحاب الجزائر .

- ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك:
السيرة النبوية - تهذيب عبد السلام هارون - دار الفكر - بيروت .

- هـــلال ، محـمد غنيـمي :
النـقـد الأدبي الحـديث - دار نهـضـة مـصـر للـطـبع والنشر - الفجالة - القـاهـرة - .

- ويـلك ، رونيـــه و أوســتن وارين :
نـظـريـة الأدب - تـرجـمة : محـيي الديـن صبحـي - مـراجـعة : الدكـتور حسام الخطيب - مطبعة خالد الطرابيشي - ١٩٧٢ .

* دوريـــــات *

- أنايس نن :

كتابة الرواية - ترجمة : محمود منقذ الهاشمي - الموقف الأدبي - العدد ١١٥ - تشرين الثاني - ١٩٨٠

- كمال الدين محمد :

العرب والمسرح - كتاب الهلال - العدد ١٦١ - ماي ١٩٧٥ .

- محمد عبد الهادي :

صورة من طابا - مقال بجريدة الاهرام الدولي - العدد : ٢٧١٨٧ المؤرخ بـ ١ اكتوبر ١٩٨٨ - القاهرة .